أين التابوت

بيانات رواية أنين التابوت:

- الرواية: أنين التابوت
- الكاتب: محمد علي التبالي
- النوع: رواية
- تحرير وتدقيق وكلمة الغلاف: رياض حَمّادي
- لوحة الغلاف: يونس نعمان. تصميم الغلاف: أمنية محمد
- إخراج داخلي: سليل الفراعنة
- المقاس: ١٤.٨×٢١ (a5)
- الناشر: مؤسسة حزاوي للتنمية الثقافية ٢٠٢٥
- رقم الإيداع في الهيئة العامة للكتاب، صنعاء: ٣٧٧ لسنة ٢٠٢٤. رقم الإيداع في الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق، القاهرة: (٣٠٠٧٠/ ٢٠٢٥)
- الترقيم الدولي، بالتعاون مع دار دان:

978-633-8284-18-3

فازت هذه الرواية بجائزة السـرد اليمني (حَزاوي) ٢٠٢٤، برعاية بنك اليمن والكويت. والرواية متخيل أدبي ولا تُعبر بالضرورة عن رأي كاتبها ولا رأي الجائزة وممولها.

حقوق هذه الطبعة محفوظة لمؤسـسـة حزاوي للتنمية الثقافية وللمؤلف. يُسـمح الاقتباس في حدود الدراسـات والمقالات مع ضـرورة الإحالة إلى اسـم الكتاب وكاتبه وناشره "مؤسسة حزاوي للتنمية الثقافية"، وما عدا ذلك من استعمالات يُرجع للناشر وللمؤلف لأخذ إذن خطي.

حزاوي HAZAWI للتنمية الثقافية

YKB بنك اليمن والكويت يلهم المستقبل YKB Inspiring the future ykb-bank.com

حزاوي HAZAWI جائزة السرد اليمني

(روايـــــــة)

أنين التابوت

تأليف

محمد علي التبالي

2025

الإهداء

إلى كل من سعى في سبيل زاد روحه، فأطعم عقله
حلال المعرفة، وصان نفسه عن علف الحظيرة.
إلى كل من قدّر مشاعره، فأحس بالحرية وإن لم
يمارسها.

❊ ❊ ❊

لـم لا تـعـود؟ وعـاد كـل مـجـاهـد ❋ بحلى النقيب أو انتفاخ الرائد
ورجعت أنت، توقعًا لملمته ❋ من نبض طيفك واخضرار مواعدي
وعلى التصاقك باحتمالي أقلقت ❋ عيناي مضطجع الطريق الهامد
وامتد فصل في انتظارك وابتدا ❋ فصل، تلفح بالدخان الحاقد
حتى اقتربت وأم كل بيته ❋ فتشت عنك بلا احتمال واعد
من ذا رآك وأين أنت؟ ولا صدى ❋ أومي إليك، ولا إجابة عائد
والسقف يسأل وجنتي لمن هما؟ ❋ ولمن فمي؟ وغرور صدري الناهد؟
ويقول لي شيء، بأنك لم تعد ❋ فأعوذ من همس الرجيم المارد
خلفتني وحدي، وخلفني أبي ❋ وشقيقتي، للمأتم المتزايد
أتعود لي؟ فيعب ليلي ظله ❋ ويصيح في الآفاق أين فراقدي؟

عبدالله البردوني

❋ ❋ ❋

الجمهورية اليمنية

محافظة صنعاء

إدارة أمن مديرية مناخة

الرقم: (.....)

المرفقات: (.....)

التاريخ:
(٢٠١٨/٠٤/٢٢م)

.....)

تقرير

تلقت إدارة أمن المديرية يوم الخميس الموافق "١٩/ ٠٤/ ٢٠١٨م" بلاغًا من أمين المنطقة يفيد بوجود جثة مرمية في جبل شبام حراز، وبناءً على ذلك، كُلِّفَ ثلاثة أفراد من وحدة البحث الجنائي، إلى جانب أربعة عناصر من فرع الأمن العام، بالنزول إلى الموقع، وقد تبين الآتي:

تعود الجثة لذكر هزيل البنية، في العقد الخامس من العمر، يبلغ طوله نحو (١٧٥ سم). وقد تبين أنه أحد الأسرى المفرج عنهم حديثًا ضمن صفقة التبادل الأخيرة ويدعى "حامد راجح علي المشعب"، من أهالي قرية الناعور، مديرية مناخة.

حالة الجثة عند المعاينة:

- سواد في الأطراف مع اصفرار مائل للبياض في الوجه، نتيجة نزيف شديد.
- وجود ثقب في الجانب الأيمن للرأس يحيطه حرق دائري من

الدرجة الثانية، بقطر (٦ سم)، ناتج عن طلق ناري من مكان ملامس.

وقد أكد كل من المختصين الجنائيين والطبيب الشرعي، عبر تقارير منفصلة، أن سبب وفاة المذكور هو اختراق طلقة نارية عيار (٦٢ , ٧ مم) لجمجمته، أُطلقت من المسدس الذي تم العثور عليه في يده وهو بوضعية التصويب، ما أدى إلى نزف حاد وتمزق في أغشية وأعضاء الرأس الحيوية.

وبناءً على نتائج الفحص والمعاينة، خلصت اللجنة إلى أن الوفاة ناجمة عن انتحار، مع بقاء دوافع إقدام المذكور على فعلته غير واضحة حتى الآن، باستثناء العثور على أوراق ودفاتر مكتوبة بجوار الجثة، والتي سيتم الاطلاع عليها قبل تسليمها لذويه.

وعليه، تقرر إيقاف جمع الاستدلالات، ومنح تصاريح الدفن.

❊ ❊ ❊

وصية

سأقطع اليوم حبل السنين المسمّى العمر، بمعيّة الأجل الاختياري، لأضع نهاية حتميّة للصراع مع الأقدار العاثرة. سأستسلم كمحارب عنيد أحرق كل قماش أبيض في البلدة، خشية أن تُرفع راية استسلام أثناء النزال. غير أن انسحاب معظم الجيش إلى بيوتهم علّمني أن الخسارة لا تكون بانتصار العدو عليك، بل بخذلان أنصارك لك. أما الاستسلام فليس إلا النتيجة الطبيعية لشرف المواجهة.

في هذا العصر، عصر الخيارات المفتوحة، زمن السوق الكبير والمندوبين المتطلعين لإرضاء عملائهم، زمن العلامات التجارية الكثيرة والأسواق الحرة، الزمن الذي تتحول فيه عربات التسوّق من واقع في الصالات إلى أيقونات على شاشات إلكترونية... حتى الموت صار يُعرض في سوق الانتحار، ولك أن تختار آخر صيحاته.

أما أنا، فلن أكون جزءًا من هذه السوق. لن أشتري آخر صرعات الانتحار، لن أرحل إلى عيادات الموت الرحيم، كما يفعل البعض في أوروبا، ولن أفجّر نفسي بحزام كما يفعل المتطرفون. موتي سيكون برصاصة باقية من حرب خاضتنا أكثر مما خضناها، حرب أولمتنا للموت كوجبة ناضجة على نار هادئة. كذب من قال إن للحروب انتصارات؛ فهي لا تخلّف إلا الخراب والأكفان.

أنا اليوم ضحية مطاردة حمقاء مع الموت؛ ذاك المتسابق الذي تجاوزته بوقود

الحب، ثم أدركني عند آخر منعطفات الشوق. أنا الآن فوق تابوتي، لا لأعلن نصري ولا لرفع راية استسلامي، بل لأشهد. أنا الشاهد الصادق على قضية الحب والشوق والوطن والمرأة والحرب.

سأحكم عليكم بحقيقة الشاهد لا بعدالة القاضي، فالحقيقة أوسع من العدالة. العدالة يحكمها قانون يقف في صف من يحسن استغلال ثغراته، فكيف نرجو الإنصاف ممّن يتواطأ مع من أدرك عيوبه؟ ولأن الحقيقة هي من ستحكم سيكون القصاص من الشاهد لا من المجرمين.

بدونك لم أعد أخشى شيئًا، ولا حاجة لأن أتواري خلف وعد صادق أو كاذب. فأي موت أعظم من فراقنا؟ عن أي سكون سنتحدث دون أن تكترثي للحظات لن تجمعنا؟

قلتِ: "سأنتظرك"... حتى لو غيّر الانتظار اسمه في سجلات القدر. فكيف تخليتِ عن وعدكِ دون أن يضطر الانتظار لتغيير كنيته؟ لا أدري من منا يستحق العتاب: أنتِ التي ألقيتِ وعدكِ في سلّة نفايات، أم أنا الذي فرّطتُ في حبّي الكبير مقابل غنيمة في حرب خطفتكِ مني سبية؟

وفي النهاية سأموت كما أردتما: أنتِ والقدر. سأموت منتحرًا كما لم يتوقّع خيالك الفارغ من الثقة والحنين. ستلمسين هذه المرّة جثتي، وتعيشين ندبي، محرومةً من كل شيء إلا من حسن ظني بك، ومن حدسي الذي عزّى أحزانك ودموعك يومًا.

ستكون موتتان لا واحدة، بما يوازي حجم غدركِ وبما يرضي وفائي. فلا أحد ينال من المواقف انتصاراتها، ولا أحد يدفع أكثر مما عليه. وأنا... قتيل سدّد لحبه وأشواقه ووعوده موتاته المقسّطة، وبقيتِ أنتِ بوفائكِ الغامض: لا أدري أكنتِ معسرةً عن سداده، أم لم تطمئني لجدوى استدانته أصلًا.

بطلقة واحدة سأعبر ضفتكِ. انتبهي جيّدًا، لم أقل "ضفة الحياة" احترامًا لعرف الوفاء، ولليوم الذي ظننتِ فيه أنكِ الحياة نفسها. سأظل أعلّمكِ النبل، حتى وإن لم يكن لي من طباشير سوى الرصاص؛ لأني أعلم أن للضمير حركة ووجعًا، وإن ابتعد عنكِ، كذيل سحلية قُطع بالنعال. أما بقية معارفي وعلومي، فكلها جهل بكِ، أضلّتها الثقة المفرطة عن أن تدرسكِ بإتقان.

بعد هذا العمر، يطيب لي أن أموت بطريقتي، كما يطيب لكِ أن تعيشي بطريقتكِ. لم يعد يجمعنا شيء، حتى الرغبات صارت متضادة المسارات.

سأترك لكِ أوراقي، وأمنحكِ حرية تصنيفها كما تشائين، غير أن لي رغبة أخيرة: أن تتجنبي إعادة ترتيب قصتنا تنازليًا، فالترتيب الذي يحنّ إلى الماضي لأنه يكره أشكال اللحظة سيجعلكِ تجدين نفسكِ مع أشواقي في الأخير، فتترك النهاية فيكِ شيئًا من الصفاء، وتَريني مع غدركِ في المقدمة مذبوحين، فتختصري على نفسكِ عزاءين متكررين بي وبكِ إلى عزاء واحد.

سأهديكِ مذكرات حبي وشوقي، مرفقةً بجثة مصبوغة بلون عشقناه معًا. وعليكِ أن توقني أني تعمدتُ عدم رؤيتكِ بعد الإفراج عني، كي لا أتفاجأ

بتغيّر ملامحكِ، أو أراكِ مبتسمة، وقد ظننتُ أن ضحكتكِ كانت حصرية ليّ، وكي لا أجد عذوبتكِ وأنوثتكِ في حضرة غيري، إذ كنتُ أحسبهما ماركة مسجلة باسمي. أنا ذاك الرجل الكريم مع الحياة، الجشع بكِ، السخي من أجلكِ.

عزيزتي، لا تلومي قراري يومًا ما، فقد سبقتِني أنتِ باختيار الفراق. ولا يفجعكِ رحيلي، لأنكِ قد رحلتِ عني وأنا إلى جوارك.

الفارق بين قراري وقراركِ هو أنكِ سبقتني بالانتقاء، وأجلتُ اختياراتي إلى أن أصبحت وحيدًا لأختار بذائقةٍ منفردة. وضريبة الذائقة الواحدة هي قلة المعجبين.

❊ ❊ ❊

١

اليوم، منتصف أغسطس ٢٠١٧م. مضى عليَّ هنا قرابة عامين. لم تسترح فيهما أذناي من صراخ الأسرى كما استراحت اليوم، ولم يخلد التوتر إلى نومه قبل هذا التوقيت كما يفعل الآن. لقد منحونا استراحة لا نعلم سرّها، غير أننا نلمس فيها شيئًا من العطف والإنسانية.

سمحوا لنا بحق الكتابة، وبساعة تنزّه في ساحة الاعتقال كل يومين، كما زادوا وجباتنا إلى اثنتين. أن تنال هنا حقًّا مهما كان صغيرًا لا يعني أنك انتصرت وحسب، بل يعني أنك رُقِّيت إلى مرتبة البشر. الأسرى اليوم يتلمسون وجودهم بنشوة حائرة وارتباك غريب.

أعترف أن جائزتي الكبرى اليوم كانت استعادة حقي في الكتابة، تلك التي يعود شغفي بها إلى أيام مجالستي لأخ زوجتي خالد، ولرفيقي عمار. كانت صحبتهما قد عوّدتني على مخالطة الكتب، وعلى لذة المطالعة، ومن بعدها وقعت في غرام الكتابة، ثم بدأت تظهر عندي عادة جديدة: تدوين المذكرات.

منذ أن أُودعت هذا المعتقل فارقت كل رغباتي، وتركت قسرًا جميع عاداتي. واليوم فقط أشعر أن لهفةً مقطوعة عادت لتنبت فجأة، كما لو أن زهرة توليب بدأت تبرعم في مزهرية بعد قطفها. كنت قد بحثت سابقًا عن السبب العلمي لنمو التوليب بعد قطافه، فاكتشفت أنه يعود لافتقاده "المخ"، فلا تعقل

الزهرة أنها قد قُطفت! هكذا أنا أيضًا، أنمو رغم قسوة القطف.

لا أدري من أي سطر أرتجل عمري. أي البدايات تليق بي؟ تلك التي تشبهني؟ أم تلك التي التصقت بي دون علمي؟

لم يسبق أن نثرت ندمي كما أفعل الآن على الورق، كأنني أحطم جدار خيبتي، أو أُشهِر قلمي كخنجر يطعن عنق الغياب، لا ليترك دمًا أحمر، بل حضورًا أصفر لا يشبه الوجود.

سأكتب مذكراتي من داخل زنزانتي الصغيرة، أملًا في أن يعود شيء مني إلى سلوى، ولو على متن كتاب. أنا الأسير الذي لا يحمل رقمًا، ولا تاريخًا لمحاكمة، ولا موعدًا للعودة.

وسأبدأ قصتي من اللحظة التي أهدتكِ إليّ؛ من اليوم الذي بادلْتِني فيه الحديث، فأكدتِ لي أنكِ تحبينني، ولو بقدر أقل مما أحببتكِ أنا. كانت تلك اللحظات معجزة خرجت بعملية قيصرية من رحم المستحيل، بعد أن واجه حبنا مخاضًا عسيرًا في مجتمع يجرّم البوح بالعاطفة. كان حبنا خطيئةً لا كفارة لها، وذنبنا أننا أحببنا بوفاء.

يسمح لي السجّان ببعض الأوراق، وقلم جُرِّد من غلافه البلاستيكي خشية أن يُستَخدم في أعمال عدائية. بلغة واحدة عليّ أن أكتب، وبحبر واحد يجب أن أعبر، وفي النهاية يفتش سجّاني نصوصي سطرًا سطرًا، كأنه يبحث عن سر غامض لا يدرك أن الغموض لا يسكن الصفحات، بل الأرواح. يخشى الرموز

وهو لا يعلم أن الأوجاع بلا شفرات. ثم يرفع بصره في وجهي، يطابق ملامحي بما كتبت، وكأن عليّ أن أجتاز اختبار الانسجام بين الوجه والكلمات.

أكتب اليوم لأؤثّث زنزانتي بالكلمات، فأنا أخجل منها كلما رأيتها عارية، وأخاف ظلمتها، لذا أردت أن أؤنسها بالحروف. أردت لجدرانها القصيرة أن تتعلّم كيف تتسع بالحب، ولأرضيتها المتسخة أن تتطهر بمعقم الأمل.

إذًا، فليكن مطلع حكايتي إما من الزنزانة إلى سلوى، أو من المواطن إلى الوطن. ولعلّي سأبدأ بمكاتبتكِ أنتِ، لأن رسائلي إليكِ لا تحتاج إلا لورقة وظرف فارغ من الطوابع. أما الوطن، فهو بحاجة إلى ساعٍ يطمئن شوارعه أن الطرقات ما زالت سالكة، وأن صناديق البريد لم تُخلع من الأرصفة. وإلى أن يجد الوطن ساعيه، سأكتب لمن أقدر أن أكتب لها: إلى سلوى.

تأكدي أني لا أكتب إليكِ بدافع الشوق وحده، بل لأبسط اعترافاتي المرّة، وأعرض وجهي الحقيقي بلا أقنعة. ولأعرفكِ على وجه خوفي الحقيقي، لكي أجرب ألا أتظاهر أمامكِ بأني لم ألاحظ شيئًا ولم أخف من أحد؛ فقط خِفتُ من قلبكِ مثلما تمنيت أن يؤنسني. خشيت أن يتمكن لصوص الحب من سرقة قلبكِ، كرهت وسامة ياسر، وكنت أفسر حضورَه اللافت بأنه مجرد استعراض، وشهامته بأنها عشق للظهور.

لا أعلم كم تعلقتِ به، لكني أعلم أن أخطبوطًا مثله لا يعبر من حياة أحد دون أن يترك عليه أثرًا من أذرعه.

كنت أكبركِ بعام واحد. لعلكِ كنتِ فتاة القرية التي بدأتُ أتعلق بها مع مطلع شبابي، بعد أن كنتِ قبلها صديقة طفولة مفعمة بالسر والشقاوة والعناد. لم تكن ملامح المستقبل توحي أنكِ ستكونين من نصيبي، أو أن قدرًا مشتركًا سيجمعنا، فقد كان والدكِ يرى فيكِ فتاة جميلة وذكية تستحق زوجًا من المدينة أو من المهاجرين لينتشل عائلتكِ من حياة الشقاء.

كان العم نجيب يؤمن أن الحرمان لا بد أن يتوقف عند جيل ما، وأنه لا يجوز أن يُستنسَخ البؤس عبر الأبناء. أراد لكِ نصيبًا "شاذًا" عن فطرة القرية، وكان يرى أن زواجك من رجل طموح سيُحسّن جينات العيش.

كان عليّ أن أجر نصيبكِ إليَّ بمعجزة، أو بنبوة، أن أجعلكِ تحبيني حبًا يعلقكِ في سلالة الفقر إلى الأبد. أن أنقل إليكِ جنوني لتواجهي به عقلانية والدكِ، لترشقي طموحاته المنحرفة عن سير حلمي.

وقبل كل هذا كانوا يرون في ياسر- الشاب الوسيم والطموح- أنه الأجدر بكِ، فبعد أن حصل على شهادة البكالوريوس في طب الصدر والجهاز التنفسي من جامعة القاهرة كان عليه أن يحصل على حبكِ ليتسنى له معرفة دواء فعال للقلوب، ليمتلك قلبًا حيًّا يلهمه أسرار تعافي القلوب ويستطيع التفرقة بين القلوب المريضة والصحيحة.

لم يكن موت ياسر نتيجة زلة قدم من أعلى الجبل أودت به، بل أنا من دفعه ليموت.

هل عرفتِ الآن السر الذي أخفيته عنكِ طَوال حياتي؟ وهل أحزنكِ أم أسعدكِ؟

وماذا عنكِ أنتِ؟ هل كان لكِ سر تخفينه عني، أم أن سركِ العظيم لم يولد بعد؟

حين نهرب نحو أرواحنا فإننا، بطريقة أو بأخرى، نلوذ بأسرارنا؛ نحتمي بها، فهي السلاح الأمثل الذي نواجه به عفويتنا وتلقائيتنا. فللأرواح أسرارها، وللمظاهر وضوحها.

أردت أن أبوح لكِ بما سبق وجهًا لوجه، لأتذوق طَعم انتصار حبي على ميول قلبكِ، ولأقرأ تعابير وجهكِ وأنتِ تسمعين عن ملحمية عشقي، ولأنتقم من أذنيكِ اللتين صدقتا وعود ياسر. لكنني اليوم أجد نفسي مضطرًا أن أكتب لكِ الوصفة التي امتلكتكِ بها، لتعلمي أن تركيبة الإجرام، مهما تعقدت، أهون من غيرة القلوب إذا عشقت.

الآن فقط، أعود إليكِ بنصف عاداتي القديمة، وبنصف جديد لم تريني به من قبل: بلا غيرة من أحد، وبشوق آخر لم تألفيه، بلهفةٍ متقدة التقطتُها من بين دفاتر الشعر، وأوراق الروايات، ومذكرات العشاق، واعترافات المراهقات. أعود إليكِ لأمارس معكِ حبًا جديدًا، لا بأجسادنا بل بشهوة القلم والصفحة. سأكتبكِ كما رحلتُ عنكِ، وأردُّ دَيني هذه المرة، لأنعم في النهاية بضحكة انتصار ماكرة، وأقول بفضاضة رجلٍ حر: هذه بتلك. سأدعكِ مع الحرف في خلوة غريبة، لا مكان فيها لغيرتي.

ما زلتُ أذكر أول يوم حاولتُ فيه الحديث معكِ. تبعتكِ منذ خروجكِ من البيت حتى وصولكِ إلى الوادي، اقتفيت أثركِ على طول المنحدر من الجبل حتى بطن السهل، لأطرح عليكِ سؤالًا لم يكن من المنطقي أن يُجاب في ذلك المكان. ترددت كثيرًا قبل أن أجرؤ على مخاطبتكِ، لكنني بعدما أقنعت نفسي أنني سأتحمل النتيجة مهما كانت قاسية، قررت أن أصارحكِ بمشاعري، وقد حيّدتُ آخر صعوبة بقتلي ياسر.

ذلك الصباح كان عقب مساءٍ ماطر. كانت الأرض لا تزال رطبة، والأعشاب تجثو على حواف الممرات، مرصعة بقطرات ندى تحدق في الشمس، تشرح للعابرين تعدد ألوان أشعتها. بدا أن الشمس تنتقم من الندى الثرثار، فالتهمته على شكل بخارٍ يتصاعد في الفضاء الواسع، لتفوح من جنائز القطرات الميتة رائحة تخمّر الوحل.

كان الممر الضيق يزدحم بالقطيع، فيما يجلجل الراعي إبراهيم بكلمات مقتبسة من لغات مجهولة يثني بها خرافه التواقة للمسالك الرحبة خارج خريطته. ناديته وألقيتُ التحية. كان شابًا، لكن مجالسته المتكررة للفتيات اللواتي يقصدن الجبل للرعي قد انعكست على مشيته المائعة وصوته الرخو، على عكس ملامحه الخشنة المصقولة بالشمس. يمتلك حدسًا واسعًا وخيالًا يقظًا، دلَّ عليه سؤاله الماكر عن سبب نزولي إلى الوادي في ذلك الوقت المبكر. أجبته بارتباك: "أريد أن أحظى ببعض ثمار الصبار قبل أن يسبقني إليها أحد." لم يقتنع، لكنه لم يُبدِ اهتمامًا، بل أضاف بخبث: "لا تنسَ

أن تعرج عليّ عند عودتك، أريد بعضًا منها."

كنت مضطرًا لمجاملته بالحديث كي أجد فرصة لمراقبة مقصدكِ دون عناء، ولأسيطر على توتري. فسألته: "أما زلت تجيد الغناء كما في السابق؟" أجاب بخجل مكتسب من مجالسة راعيات الماعز: "لم أُجد الغناء يومًا." قلت: "تمتلك صوتًا جميلًا، ولو كنت في بلد مثل أمريكا لما تركت لمايكل جاكسون فرصة للظهور."

كان أولاد المراعي الجبلية أنصاف ذكور، ولكنهم كانوا يمتلكون مواهب عديدة، وكانوا يؤمنون مسبقا إنها خلقت لهم وحدهم فكانوا يتعاملون مع قدراتهم البديعة كتعاملهم مع أعضائهم التناسلية؛ لقد خلقت لتأدية غرض ما وهي غير صالحة للمشاركة مع أحد.

غنّى إبراهيم بعد إلحاحي، مستخدمًا دلوه النحاسي- الذي يستخدمه في سقاء الأغنام- كطبلة، وأخذ يصدح بصوت شجي:

"يا نسيم الصباح سلِّم على باهي الخد، نبهه من منامه، قُلُّه إني على وعـده بحبه مقيد، حتى يوم القيامة".

كان غناء إبراهيم يبعث على الاسترخاء تاركًا للصباح حرية دخول يومه الجديد دون مشقة. يكمل أغنية ويبدأ أخرى، بعد أن أنساه إنصاتي خجله.

"يا قمريه في جبا الدار محبوب قلبي صلين سار، قالت نزل يجني أثمار من الرياض الندية، بكّر غبش لجل يسجع مع القمارى ويزرع، سير ابسره يا مولع

ترجع ونفسك رضية"

ابتعدت الأغنام بما يكفي ليلحقها إبراهيم، فتركني لفرصتي في تعقبكِ. توغلتُ في الوادي بين أحراش السدر بعدما تبين لي مقصدكِ، غير مدرك تمامًا ما أفعل. كنت مشوشًا ومرتبكًا، أسمع دقات قلبي واضحة وقريبة وسريعة، كأنها تعلن اضطرابي أمام موقف جديد لم أعتده. فالبدايات عندي دائمًا أصعب مراحل الحياة.

الأيام التي جمعتني بكِ لم تكن سوى أيام طفولة، ومن الصعب أن أبني عليها حديثًا أو أحدد عبرها ملامح تفضيلاتكِ. لم أكن أعرف حتى أي الألوان تحبين، مع أن تفضيل الألوان في ريف صنعاء لم يكن عادة شائعة، بل ترفًا يتجاوز همّ الرضا الاجتماعي. ولم أدرِ كذلك أي الأطباق تفضلين، فالمطبخ الريفي في صنعاء لا يعترف بالأطباق أصلًا، ويرى في وجودها حتى في المدينة مظهرًا دخيلًا يناقض تقاليد الضيافة.

أيقنت أن استهلال الحديث معكِ عسير، وأن جهلي بكِ لا يبرر لقلبي سببًا منطقيًا لحبه لكِ، لكن ضجيجًا داخليًا كان يدفعني لأحسم موقفي من مشاعري. لم أعرف وقتها متى تكون الفرصة أنسب لأحادثك: عند بدئكِ العمل؟ أم أثناء انشغالكِ به؟ أم فور انتهائه؟ أخيرًا اخترت منتصفه؛ فالمنتصف دائمًا ذروة كل شيء، وهج النشاط، وعنفوان الوقت، كأن عقربي الساعة يتبادلان النظرات من علٍ مع من يحدّق فيهما من الأسفل.

تسلقت من الحقل المجاور للحقل الذي كنتِ فيه، متظاهرًا بأنني متجه نحو القرية. رأيتكِ وسط المزرعة الصغيرة، تمسكين المنجل وقد انحنى في يدكِ، فانحنيت أنا بدوري تحت غصن سدرٍ منسدل، يرغم كل عابر على انحناءة قصيرة بعد خطوة واحدة من عبور شرفة الجدار نحو الطريق المؤدي إلى طرف الحقل. كانت لحظة خشوع في الجسد، وبرهة خضوع في المشاعر.

رأيتكِ تهمين بالجلوس لتعشيب الحقل، وقد رفعتِ نقابكِ إلى أعلى رأسكِ لثقتكِ أن لا أحد سيمر في مثل ذلك الوقت. لكني كنت العابر الذي لم تأتِ به الطريق، بل ساقه الشوق إلى قلبكِ، طريقًا لا يمر من بعده أحد.

هكذا تهيأ لي منذ البداية يا سلوى، أو هكذا هيأتُ نفسي. أنا العاشق الوحيد الذي يروض الوقت ومشاعركِ معًا، فلا يستسلم للملل ولا يدركه التعب، بل يحوّل طاقة الزمن إلى أشواق، ويبدل غرابة ظنونكِ عنه إلى انطباعات حسنة.

في ذلك اليوم رأيت وجهكِ كاملًا لأول مرة؛ عينيكِ، وجنتيكِ، شفتيكِ، مجتمعة كأنها تعقد جلسة سرية حول تقرير مصير حبي لكِ. كان في سواد عينيكِ غموضٌ محبب، وفي استدارة وجنتيكِ دعوة خفية إلى شيء لا يُقال، أما شفاهكِ المتعانقة فجسران لا يقودان إلى نهاية معلومة.

وجهكِ المثلث المائل إلى الذقن، وبشرتكِ الحنطية، لم يكونا يحملان جمالًا صارخًا يرهق النظر، لكنهما امتلكا جاذبية غريبة تجعل من يراكِ يمعن النظر أو يتعلل بعذر ليطيل تأمل ملامحكِ. طرحت عليك أسئلة لا داعي لها

وإنما لأتيح لعيني فرصة النظر إليك. قلت لكِ، متخطّيًا الأعراف ومحطّمًا حواجز التقاليد:

- هل مازال أخاكِ خالد نائمًا؟

ماذا لو لم تردي في ذلك اليوم؟ وماذا لو أجبتِ على سؤالي العابر بإهانة؟ يومها كنتِ ستقررين مصير حبي لكِ إلى الأبد. غير أنكِ، بعد قليل من الصمت وكثير من الحياء، قلتِ:

- لا. استيقظ باكرًا.

حينها استيقظ الأمل، وغادرت الأحلام مخدعها. آن للحب أن ينفض فراشه، وللعشق أن يفتح نوافذه لإطلالة الضوء، وأن يركض الشوق نحو صباحه المحتوم.

عن كم سؤال أجاب ردكِ المقتضب؟ وكم سرًّا وخبيئة كشف لي؟ كيف لجواب واحد أن يجعلني بلا فضول، وأن يؤسس لعلاقة جديدة مع القناعة؟

خطوت يومها نحو نهاية الحقل، حيث درج حجري يقود إلى الحقل الأعلى. تسلقت الجدار وجلست على شرفته أعد كلماتي وأجرد مشاعري وأكمل مراقبتكِ. لم أرد أن أنهي كل شيء بنفيكِ السابق، بل أردت يقينًا آخر يؤكد أن حبي قد أثمر أخيرًا. رتبت لبداية جديدة، وبينما كنتِ تكملين جزّ العشب بعجلة وارتباك، كنتُ أفكر بمن لم يزل نائمًا في القرية، لأتخذ اسمه ذريعة لسؤال آخر، لكني فضّلت أن أبدله بمصارحتكِ بحقيقة مشاعري. أردت أن

ينتهي كل شيء سريعًا.

انتهيتِ أخيرًا، وجمعتِ العشب وسط عقد من نبات البرسيم. وقبل أن تقصدي الطريق خشيت أن يخجلكِ جلوسي على الشرفة فتسلكي طريقًا آخر، فتوارَيتُ نحو عمق الحقل المزروع بالذرة الشامية. عادت الرعشة لتنهشني، وسيطر الارتباك من جديد. كانت تلك المشاعر تشبه كثيرًا ما اجتاحني لحظة أسري.

رأيت يديكِ تبحثان عن الأحجار الثابتة لتعيناكِ على الصعود، فكان ارتقاؤكِ أشبه بارتقاء مشاعري. ثم وقفتِ على شرفة الحقل متفاجئة بوجودي في عمق الحقل بين قصب الذرة الشامية. تظاهرتِ بعدم الاكتراث. كنتِ تحملين على رأسكِ كومة عشب وتنظرين إلى الأسفل بحزم، تخطين بسرعة كأن البطء أو الوقوف قد يفضح خجلكِ.

تجاذبتني المسافة بين خجلي ومحبتي، كأني في ساحة صراع أو على أرض محروقة أبحث عن هدنة بعبارة بديهية تخلصني من النار. همست لكِ:

- سلوى أريد أن أصارحكِ بشيء، أنا.. أنا معجب بكِ، أتراكِ تقدرين مشاعري؟

وكأني كنت أقول: ارفعي نظركِ نحوي، تأملي فمي، أدخلي صوتي إلى قلبكِ ببطء، أرجوكِ لا تختاري الصمت هذا الصباح. إنه الصيف يا سلوى، هذه الشمس يا سلوى، فلا تجعليني أكره زرقة السماء أو أختار شرب الظلام. منذ

زمن وأنا أحبكِ، لكني كنت أرتقي نحوكِ درجة درجة، لا أريد أن أفسد عليكِ عفوية ظنونكِ في أذواق العاشقين.

دعيها للفرصة لا أكثر. لا تحمّلي كلمتي فوق طاقتها. فحبي ينصهر معكِ كلما أذابه الصيف، ويشتد نحوكِ كلما تسلق أشعة الشمس. أما إذا أردتِ قول ما ينافي، فأطفئي النور قبله، وادفعيني نحو الخريف لأتساقط كأوراق ذابلة، أو أصير كومة يعتليها النادمون، أو مزارًا للنجوم. اقتربي بهذا اليوم كما تشائين، فأنا لم أعرف أني أحببتكِ إلا في صيف كهذا. العمر دونك لا يُحسب. أنا ميت فيكِ، كيف لكِ أن تفهمي أن لكِ برزخًا ولي بكِ حياة؟ أنتِ التي لا تعرفين عن الموت أكثر من كونه فناء، ولا عن الحياة أصدق من تفسير وجودكِ.

"والله إنك حبيبي لو تقوم القيامة، لو تزحزح جبل عيبان وينزل تهامة"

بصوت إبراهيم، وبكورال صدى الجبل، وبكثير من الشجن، ودون إيقاع، كانت قيامة حبنا تتأكد. ها قد بُعث موتي فيكِ حياة جديدة، لكن وفق مفهومك الضيق عن الوجود.

ماذا عساه إبراهيم أن يضيف أكثر مما أضاف؟ إرضاءً لفراغه، وتكريمًا للحظة اختبأت بين الحقول. أتذكر أننا أصغينا يومها لغنائه العفوي، وفسرته أنا على أنه إعانة من القدر لجوابكِ المنتظر.

لبرهةٍ ظننتُ أنكِ ستتجاهلين ما قلته، وخشيتُ أن أدخل في صراع مع

الحدس. ما خطر في بالي، مع أول خطوةٍ لكِ نحو الأمام، هو كيف سأواجه أخاكِ خالد إن قررتِ أن تخبريه بما حدث؟ كان ذلك تكهّنًا أعمى يا سلوى.

هناك من قدّمت إثبات شرفها أمام أهلها على حساب حب حياتها. هكذا، من تلقاء نفسها، من دون أن يطلب منها أحد إجراء هذه المقايضة أصلًا. لكن لأن هذه البلدة لا تحتمل فكرة الاحتفاظ بالأسرار، صار الشبان يُصوَّرون كذئاب بشرية، وصرتِ أنتِ في نظرهم طريدةً سيمتصون ما استطاعوا قبل أن يتقيؤوه في مجالسهم.

قاطعتُ خطوتكِ الثانية قائلًا:

- أنا جاد معكِ، وأريدكِ بالحلال. لا تظني أني أتسلى.

أصابني حينها إسهال الكلمات؛ لم أتوقف عن سرد التبريرات، خشية عواقب رفضكِ.

أتدرين أن العشق يشبه البلاهة؟ ربما لأنه وليد الفطرة. ولكن، هل يكون البلهاء على الفطرة فعلًا؟

سألتني:

- وما الذي أثار إعجابك بي؟

كان سؤالًا يتجاوز تلقائيتي؛ لم أمتلك يومها إجابةً معلبة ولا مرتجلة. لا أدري لِمَ لم يخطر ببالي أنكِ قد تردين عليّ بهذا السؤال، رغم منطقيته. وكلما تذكرت ذلك، فسرت الأمر بأنني عانيت في حبكِ كثيرًا؛ فقد بدا لي أنني لم

أكن أتوقع منكِ حتى القبول بالحديث معي، ولذلك باغتني ردكِ.

كان في وسعي أن أقول: أخلاقكِ، أو جمالكِ، أو حتى أناقتكِ؛ أيًّا من تلك العبارات التي تُغازل بها المرأة. لكنني قلت: وفاؤكِ. فضّلت الصدق، ثم أضفتُ:

- وهذا أكثر شيء طبعًا، وليس السبب الوحيد.
- كيف عرفت أني وفية؟
- تذكرين حين قلتِ لي ونحن صغار أنكِ تحتفظين بكل أشيائكِ، ومقتنياتكِ، حتى وإن لم تكوني بحاجةٍ إليها؟
- نعم.
- وماذا يريد الرجل أكثر من أن تكدسه امرأة لعمر كامل؟ أنا أهرب إليكِ من جحيم الإهمال، وعادة التخلي.
- وهل عانيت من عادة التخلي؟
- لم أعانِ من شيء إلى الآن أكثر من مشاعري؛ ولكني أعاقب بها نفسي حين أذنب.
- كيف لك أن تعاقب نفسك إذن؟
- أتخلى عن شيء أحبه.
- أيًا كان ما تحبه؟

وكأن سؤالك كان له وجه آخر، هو "حتى أنا أيها المذنب ستُكفر بي يوما؟"

أما أنا فقلت:

- ما كل ما أحبه يصلح لأن يكون كفارة.

أردت أن أضيف حينها "بأنني من الآن تائب قد ترك معاصيه وأتاكِ ناجيا."

- هل تذنب دائما؟ قلت لي.
- ولمَ هذا السؤال؟
- لأنك وحيد.
- أنا معكِ الآن.

لم يمدني اللقاء الأول بالجرأة الكافية لأقول: "أنا لم أتخلَ عنكِ فهلا كبرت في عينيكِ حسناتي".

- قلتِ: كل ما تحبه يصلح بأن تكفر به، كيف ذلك؟
- أنا أتخلى عما أملكه فقط؛ ومثلما هناك أشياء أحبها، وأملكها، هناك أشياء أحبها وتملكني شرط التخلي هو الملكية لا المحبة.
- أنا ذاهبة قبل أن يرانا أحد ويفسر وقوفنا بما يهوى.
- في أمان الله. سأراك ثانية. المهم هو ما نهوى نحن.

❊ ❊ ❊

٢

أتوقعكِ الآن تبحثين عني في الأحراش الصغيرة، أو تفلين قصب الذرة الشامية علّكِ تجدينني، أو تعتلين الصخور كي ترينني. أين عساكِ تتصورينني؟ خلف المنحدر الجبلي؟ أم تائهًا في كروم العنب أطارد المواسم وأعاني الضياع؟ كيف فقدتِني واحتفظتِ بساعة الطفولة التي لم تعد قادرة على حصر الوقت؟

ليت خيار البحث متاح لي مثلكِ. كنتُ عثرتُ عليكِ مهما اقتحمتُ المتاهات، أو أعلنتُ الشرود. يا سلوى، لم أتخلَّ عنكِ يومًا، وكيف لي أن أقدّمكِ قربانًا وأنتِ تملكينني؟

تحضرني صورتكِ في عتمة الزنزانة، فأذوب كشمعة، أتبعثر ضوءًا أصفر ثم أنطفئ وحيدًا ومتّحدًا مع الظلام. ثقي أنني أشتعل حتى في الغياب. أتمنى أن تصلكِ رسائلي؛ فتفركي بأناملكِ خطي المرتجف وأوراقي المتسخة، عسى أن أخرج أمامكِ كمارد كبّلته لعنة الحرب. لأقول ما كنتُ أكرره دومًا:

"عندما نشتاق ننكر المسافات، وعندما نجافي نخلق المسافة، وكأن العيب في المشاعر وليس في المساحات."

إليكِ رسائلي لتقرئيها. أما أنا فما بقي لي منكِ في الزنزانة سوى سواركِ المعدني، الذي أهداكِ إياه عمكِ بعد عودته من اغترابه في فرنسا. أتلمس

السوار، فأرى يدكِ مكبّلةً به وطليقةً في الخيال. أتذكر عمكِ عبد الودود الذي أحب وفقد حبيبته بوباء الكوليرا، فراح يجوب العالم يطارد الموت. الآن فقط أدركتُ سر غربته الطويلة، ولم أعد أسخر من عبثية أيامه ولا من نزواته. لقد فهمتُ أن المرء قد يسافر إلى أقصى الأرض لا طمعًا في المال، بل من أجل أن يشرب بحرية، ويدخن دون توقف، وينام عاريًا، ويعمل في أخطر المهن.

يذكرني سواركِ بتلك الأيام: مرض عمكِ بعد عودته بشهر، وكان قد أهداكِ السوار دون أن يمنح أحدًا غيرك شيئًا. اكتفى بالقول: "جرّبي هذا، لعل مقاسه يناسبكِ"، ثم مضى يدخن سيجارته غير مكترث بالنتيجة. كانت فجيعة موت حبيبته نوال قد كلفته غربة عشرة أعوام. عائدا هذه المرة ليرمم القبر ولم يكن يحسبها عودته الأخيرة.

مات بعد عشرين يومًا من المرض، ولم يقبل إسعافه إلى المشفى. وقد كنتِ الوحيدة التي قبلتِ أن ترعيه. كان سعيدًا بقرب أجله، كأنما وجد ضالته في النهاية.

لم يكن يعلم أن الموت الذي يطارده بالتدخين والعمل في المناجم كان كامنًا في المكان ذاته الذي انتزع منه حبيبته، وإلا لما غادره. أتذكرين ما كان يردد في مرضه، لفرط يئسه من أنه سيموت؟ كان يقول: "من يعجز عن أن يغري الحياة بوجوده وهو غير عاشق، يعجز عن أن يلهم الموت بسهولة حتى وهو مريض."

الحياة التي تظلمنا ليست حياة. لا قيمة للشهيق والزفير مع الحرمان. هذا ما عاناه عمكِ عبد الودود، وها أنا أبدأ في معاناته، لكن للسجن سطوته وإلا يعلم الله ما كنت صنعت بنفسي.

أعود بذاكرتي إلى أيام اللقاءات السرية، والمفاجآت، والكتمان والشرود الطويل، والاختلاء القصير، والمشي السريع، والترصد المفضوح. أتذكر يوم كنا جالسين معًا فوق التل نشاهد السحاب تحتنا وهي مذعورة من علو الأرض عليها وكأنها قد خُدعت، ثم تلامس جبين الجبل كأنها تتحرش به فلا ينزعج من صفعتها لفرط هدوءه وكآبته. أتمنى أن ينتابني ثانيةً ذلك الشرود النقي الذي لم نكن نتحسس منه إذا لازم أحدنا، كان يفرضه علينا الرذاذ، والشفق، وزرقة السماء، وبقايا قوس قزح وخضرة الحقول.

كنتُ أضحك في داخلي وأنتِ تحاولين شرح الأسباب العلمية لتساقط البرد، وأنتِ لم تتجاوزي التعليم المتوسط، أو حين تتحدثين عن موضة الأزياء العالمية وأنتِ تنتعلين حذاءً بلاستيكيًا مقطوعًا. الآن، وأنا في العتمة بين أنين المساجين ورطوبة الزنزانة ورائحة العفن، وبقايا الفضلات الآدمية الممتزجة مع ندى الدماء والعرق... أهرب بذاكرتي إلى ذلك اليوم.

أتذكر أيضًا كيف كنا نصعد القمم لنطلّ على القرية، نشاهد السيارات متوقفة وقد قطع السيل الطريق، فبدت لنا وكأنها قرية منسية في آخر المجرة، بلا شريان يغذيها بحضارة العالم. كنتُ أقول لكِ: "ماذا لو مرض أحدهم؟ كيف يصل إلى المستشفى؟" ثم ألعن المفسدين وتجار النفط والحروب. فتردين

مازحة: "ها قد أثمرت مجالستك لأخي خالد، حتى أنت صرتَ مملًّا!" فأجيبك: "مشكلتنا أننا قليلو الفضول كثيرو الرضا."

أضحك الآن حين أتذكر فزعنا من العجوز سعاد حين رأتنا معًا، تحت الشجرة في عمق الوادي. وكيف أسرعتُ أبرّر لها بأنني كنتُ أدلكِ على طريق النبع. ضحكت وقالت بكسل: "يا ابني، أيًا كان ما قلته لها، إياك وبنات الناس. من دق باب الناس دقوا بابه." لم أطمئن لكلامها، وخشيت أن تبوح، فألحت عليّ الفكرة حتى دفعت أبي ليفاتحكم بالخبر.

لن أنسى ما قاله لي يومها.

- يا ابني، أنت وين، والزواج وين، وسلوى وين!

أدركتُ عندها أنني بلا قيمة ولا وزن، مخبأ بما يكفي كي لا يراني أحد، وسطحي بما يكفي لتراقصني الرياح بعيدًا عن أعين المارة. عبثًا أحاول الخروج من سراديب الإهمال، وعبثًا أحاول مقاومة أعاصير الفقر.

- "سويت كل شيء، أنت روح وربنا يعين." قلت لأبي وأنا غارق في خجلي.
- أيش سويت؟ ومع من؟

كاد ارتباكي أن يسحبكِ إلى نطاق ظل يخجلنا تعريه دائمًا، ولكن تلافيت زلتي بزلة أخرى أوقعتكِ أنتِ هذه المرة في مخبئي، بل في الزاوية الأكثر تحصينًا خلف يقيني الساتر الذي ظل يردي شكككِ وجنونكِ كل ما جاء بكِ

الخوف من علاقتي بكِ إلى المواجهة. بالمناسبة ماذا عن جنونكِ؟ هل ما زلتِ تعشقين القهوة لأنها تجركِ نحو الذهول، وتسحبكِ مثل ما تقود المربية أطفال الروضة إلى العابهم، كما تقولين، حتى تلاقين نفسكِ وحيدة من دون وسطاء، ولا رسميات؟ نعم، كنت تخافين عقلكِ الذي كان يرجح عليكِ أشياءً لا تحبينها، ويحدث غالبًا أن يناقض القلب العقل، بهذا كنتُ أطمئن ميلكِ إلى الهبل، بيد أن إيماني هو أن نقطة الاتزان تحصل عند تساوي الجنون بالعقلانية، حين نشعر أن المنطقية تدفعنا لمراضات حماقاتنا أو للتصالح مع النزوات المريحة.

- أبي ربنا يرعاك، جميعنا نعلم أن الوحيد الذي كان من الممكن أن يرفضني بسببه العم نجيب هو ياسر؛ وأنتم سيد العارفين تعلمون بأن ياسر الله يرحمه، قد مات.
- يا ابني، عمك نجيب كلمني أكثر من مرة بأنه لن يزوج سلوى إلا لموظف أو لمغترب في الخليج.
- أعلم، يا أبي، ولكن نجرب، الأيام تغير وجهات النظر، ثم إنني أبحث عن تأشيرة عمل في السعودية وسأكون في الأشهر القادمة أحد المغتربين.
- كيف تبحث وأنت نائم نهارا، ساهر على الدمنة وسماع الأغاني ليلا؟!
- لا يا أبي، عمار صديقي وخالد أخو سلوى مطلعين على الموضوع.

أنا أتواصل مع زميل دراسة من قرية بيت الحمل، يعمل هناك منذ عام وقد وعدني أن يجهز موضوعي خلال أشهر.

بهذه الطريقة أودعتكِ خزانة العمر، وأغلقت الدرج؛ هكذا دون أن يكون لي وزن ولا قيمة، وأنا مخبأ كما أنا لا يشعر بي أحد، وأنا ما زلت بمهنتي السابقة أراقص الريح. فعلتها كما يفعلها لاعبو الخفة؛ فردت خرقتي بقوة وحسب، فتبعثرتِ في جميع أيامي، وعلمتكِ وأنتِ تجرين في دمي سحري وسطوتي على الحيلة، فما كان من حبكِ إلا أن يكون خدعة تنضج في السجون، وتحتضر في سراب اليأس والممكن؛ أينما ذهب بي خيالي وجدت حساباتي طريحة تموت، لا واقع لها تركن إليه، ولا عدم ينقذها من المستحيل.

ماذا عنكِ أنتِ؟ هل ما زلتِ تحتسين القهوة كلما اشتهيتِ الشرود؟ هل ما زلتِ تمرين بأزقة القرية المقفرة في كل غبش، وتقرعين بخطواتكِ أبواب الشمس؟ ماذا عن رغبتكِ في النوم ظهيرة لتتخلصي من ملل النهار؟ إلى أين ذهب بكِ جلوسكِ على سطح المنزل جوار أصص النرجس والريحان وغيرها من نباتات الزينة وأنتِ تحدقين في الحقول وفي الطرقات وترقبين عودة الرعاة؟ هل ما زلتِ تتمعنين في النجوم وهي تفتت لكِ عتمة المساء، فينهار ضوؤها الرمادي على خديكِ، وعلى أوراق اللوز، متعانقًا مع زهر الرمان؟

أعرف ما تحبين: تأمل المروج بعد المطر، والحنين عند الغسق، وصحبة القطط في الشتاء حول المواقد، والاستماع إلى الموسيقى أوقات اختلاج

العاطفة بالكراهية. ببساطة أكثر حين لا تفهمين ماذا تريدين بالضبط تعالجين حيرتكِ بمقطوعات بيتهوفن وفاجنر. هل تعلمين أن فاجنر كتب نصوصًا أدبية إلى جانب موسيقاه؟ وأن مقطوعاته الموسيقية، برومانسيتها، وروحها الثورية والوطنية، كانت تروق لهتلر، ولخالد أخيكِ، فكان يجلب أسطوانات "أوبرا السفينة الشبح"، و"غروب الآلهة"، و"تريستان وايزولده".

قد يصدمك أن فاجنر انهمك بتأليف مفضلتك "تريستان وايزولده" في الفترة التي كان مفتونًا بماتيلد؛ وهي زوجة أوتو ويزندونك أحد تجار الحرير الذي كان يساعده لسداد التزاماته المالية، وأنه أنجز الليبرتيو في السنة ذاتها التي خان فيها زوجته مينّا. أتدركين الآن أن دواءكِ الفعال ليس إلا خلاصة نزق عاشق وخيانة زوج؟ لهذا خشيتُ دائمًا آثار علاجكِ الجانبية، وخبايا روحكِ المضطربة التي تداويها الخيانة وتتعالج بعقار العشق المؤقت.

❊ ❊ ❊

٣

هل ستتفجر مشاعركِ يومًا في وجه أشواقي الهاربة من قيود السجن؟ نعم، سأتمزق، لكن إلى شظايا تحفر في ضميركِ تأنيبًا، لن تجمّلها الموسيقى ولا مرور الأيام. رائحة ضميركِ المعطوب ستلاحقكِ، حتى في سعة تبريراتكِ الأنثوية. سواء أكنتُ أوتو، ضحية إعجاب ماتيلد، أو مينّا، ضحية ملل فاجنر، فالخيانة وجهها واحد، والقسوة على المشاعر ألمها واحد، مهما اختلفت أسبابها. فإياكِ أن تعودي إلى مربع التخلي، فلن تجدي موطئ قدم، بل جحيمًا ينتظر تعافيكِ المريض.

بتخويفكِ أطمئن عليكِ، فبرج السكينة مبني على أرض الرعب. إن لم تتوغل الأساسات في الهلع، فما نراه ليس طمأنينة، بل لامبالاة. هذا ما أردتُ التأكد منه بشأن تقاليدكِ. لكن، ماذا عن عادات الناس وأخبارهم؟ إلى أين وصل بحث والدكِ عن خالد؟ وماذا عن قامة والدي المنحنية، هل أثقلتها مصيبتي أكثر، أم عدّلتها الفجيعة بمساهي اللحود؟ ما حال أمي ومسبحتها؟ أخبريها أن تدحرج خطاياي بين أصابعها، عسى أن أتعافى. انقلي إليها رغبتي في دعائها، فأنا أثق بهمسها للسماء وصدق روحانيتها. أجزم أن لها خاطر الصالحين، فهي أكثر من يشفق عليّ ولن تبخل. كنتُ أقول إن عطفها الزائد سينزف بها حتى الموت. دموعها وحدها تخجلني، ولا أحد يمسك خطاياي

مثلها. أخبريها أن الموت تحت سياط السجان لن يضعني في مواجهة قدرها القاسي. كنتُ أتمنى أن أموت قبلها، لألا أضطر لمواراتها أو العيش دونها، ولألا أرى روحها في المقابر.

ماذا عن عمار؟ ألم تتعبه الهجرة بعد، أم أصبح الوطن مجرد نخب عابر في أمسية يرعاها لصوص السفارة؟ وماذا عن مرام؟ هل ما زالت تكره الحب لأنها لم تجده إلا في خالد؟ هل ما زالت تحدق في الجدران، تنتقم من تغزلها به بالهلوسة والهذيان؟ وماذا عن معمر؟ ألم تعده العزلة إلى عقله، أم أن التأمل يرتدي وجه الشرود كلما ملّ منا؟

كم أود أن أحطم قيود السجن كروح غاضبة، وأسحبكِ خلفي كالدخان. كم أود أن نقف معًا فوق السحاب ونكسر الريح، وأن أسمع همسكِ كغمغمات المطر بين الشجر. كم أود أن نستلقي معًا، ننقش بخيوط ضوء القمر أهدابًا للجبل، أو نشعل في كبد الليل نارًا تهتدي إليها أشواقي التائهة. لنصنع من الوقيد أنوارًا تغير عادات نيران الحرب، ولنجعل لهذه الأرض اسمًا غير الهشيم، ولتكف دمى الأطفال عن كونها رمادًا.

دعينا نوقد شعلةً تحمل مفهومًا أوسع من الذي وضعته الفراشات الصغيرة، وتعريفًا يليق بضوئنا المنهزم رغم بريقه، ذلك الذي نام عليه ظلكِ، وتناثر على الطرقات المبللة، وكسره فنجان القهوة، وسطع في عينيكِ كالبرق. هو ذاته الخائف من العواصف، الهارب من التضاريس، المنسحق على عتبات النهار، الذي يشبهنا.

هل تعلمين الآن لمَ لم أكره النيران، ولمَ لم أعتد العتمة؟ لأنني أحب الضوء، ولأن ظني لا يخيب في أحلامي وفي روحي المنسحقة وفيكِ، أنتِ التي تربين النور بعيدًا عني، وتكبرين الفجر عسى أن تتلاشى عتمتي. فسحقًا لكل شيء حولي الآن، ولكل ما مرّ بي، عدا ظنوني وأوهامي.

نسيتُ أن أسأل عن حال الوطن. هل ما زالت صنعاء تنام عارية تحت النيران، وعند الصباح تتباهى بشرفها؟ ماذا عن أسوارها المنهكة من الخجل، وساحاتها الضيقة، وفضائها الرحب في الخوف؟ هل تعافى الرغيف من ألم الانقراض؟ هل شفيت أحاديث المجالس من الأزمة؟ هل تخلى الناس عن عادة التحديق في أخبار الهجرة؟ هل ما زال الوطن يتواطأ مع اللصوص وتجار الحروب، ويبرم عقود الموت والمجاعة مع المتسلطين؟ كم ضايقتكم مناورات السياسة، وكم توسعت كروش الساسة؟

أتذكرين، يا سلوى، زيارتنا لصنعاء في أيام شهر العسل؟ أتذكرين أول تعجب داهم خيالكِ فور وصولنا؟

- يااااه كم اتسعت المدينة!

لأقول لكِ:

- بل كم ترهلت المدينة!

أهلاً بكِ يا سيدتي، في المدينة المتخمة بالفاسدين. مرحبًا بكِ قبل أن تنفجر بالونة الضجر في طريق رحلتكِ العرائسية، فتنسد آفاق الزوجية أمام وجهكِ المشتهى.

بخطوةٍ مرتبكة تترجلين من السيارة لنضع الرحال في فندق غير مصنف ضمن قائمة الدرجات السياحية. استقبلتك عيناي مدهوشتين بتمرد جسدكِ الريفي المتناسق على الشارع العشوائي. لم يمنحكِ الوقت فرصة للتأمل أو لتفحّص المدينة والمارة والباعة؛ كنتِ منهمكةً في إخراج الشنطة الجلدية من خلف المقعد، فيما أبواق السيارات تسمّم سمعكِ الطري وتزيد من ارتباككِ. كنتُ أراكِ عاجزةً عن لملمة وضعكِ، وأحببتكِ في تلك الحالة غير المنتظمة. ها أنتِ تتناسقين مع المدينة دون علمكِ. ربما هي صنعاء من تجبر زائريها على طاعة سلوكها البوهيمي، أو لعلنا نحن من نعشق غجريتها ونروق لأسلوبها في معاندة المدن العصرية. لذلك نخشى أن نعلّمها- أو نعلّم أنفسنا- كيف تتحضر، خوفًا من أن تتقيأ نصائحنا الميتة فنختنق ببارود أحشائها.

كان نهارًا ربيعيًا ساطعًا. سحبتنا نسائمه إلى عمق المدينة. نحن نزلاء جدد على صنعاء، وعلى طراز الحياة الفندقية. ربما هو يوم طويل من الارتباك؛ عاودتكِ حالةُ إخراج الشنطة من السيارة عندما وقفتِ أمام المصعد، عاجزة عن التعامل مع زر وحيد يومض في وجهكِ بشقاوة، كأنه يقول: "المسيني إن استطعتِ". فيما عيناكِ كانتا تائهتين لا تدريان السبيل إلى فتحه. ضحكتُ حينها بدلًا من الضغط على الزر، فازدادت عيناكِ حدةً وانزعاجًا من سخريتي.

اقترحت عليكِ أن نرتاح حتى المساء ثم نخرج للعشاء في مطعم قريب.

وقصدنا عشيةً مطعمًا في أحد الأحياء الراقية، لا يتحسس رواده من رؤية امرأة

ممسكة بيد رجل بعد أذان العشاء؛ فتبدأ أعينهم في حرق جسدها، وتشرع أفواههم في علك سبب خروجها في هذا الوقت. كانت الوجبة حارةً وشهية، قارنتُ بينها وبين أكلكِ حتى أثرتُ امتعاضكِ فقلتِ: "نعمل لكم أكل ببلاش وعادكم تتذمروا!"

ما لم تكوني تعلميه أن جلوسكِ أمامي كان يفتح شهيتي أكثر من الأطباق، وأن رؤيتكِ لأول مرة تتربعين كرسيًا وطاولة جعلتكِ تتجاوزين الطهاة أنفسهم. لم يفصلني عنكِ سوى صحنين، وفنجانين، وكوب ماء، وحساء لذيذ، لكن بيننا كان رضا يغمرني، كزائرٍ جاء محمّلًا بكل زهور الربيع ونسائم الامتنان ليدهش بها قنوطي المكتوم. صعدت تنهيدتي المنغمسة بنعمتكِ، وأسدلت عيناي شيئًا من بهاء اللحظة. يا لذاك الزهو الذي جعلني أمسك بيديكِ وأهجر طبق الحلا.

خرجنا معًا إلى الشارع. صرتُ أكثر تقيّدًا بكِ، أشير لكِ إلى المحلات وأشرح لكِ ما تقدمه، وأحيانًا أريكِ ما في الجانب الأيسر، ثم ألتفت لأريكِ ما في الجانب الأيمن. أمسينا ندور تحت الأضواء الخافتة كدولاب الحظ، يضعنا الروليت على أرقام الرهان، غير أن لا قمار عندي سوى ما منحتني إياه تلك الطاولة من رضا. يا لذاك الزهو والحظ الذي وهبته لي صنعاء تلك الليلة، صنعاء المريضة بحمى تقاليدها، المتفاقمة كلما مشت في ليلها امرأة مرتشحة بالأنوثة.

لو تدرين كم مكثت تلك الليلة في خاطري! أسترجعها كحكاية أسطورية

تفسر سر تسمية "ألف ليلة وليلة". كذب من قال إن الأشياء تدوم بالمحافظة عليها؛ الذاكرة هي التي تختار زمانها لتسكن فيه وتخلّدنا معه إن شاءت. لسنا أكبر من الزمن ولا أرقى من الذاكرة حتى نجبرها على البقاء بالهيئة التي أحببناها.

عدنا لنمضي ليلتنا في الفندق بالبهاء نفسه، وبالمتعة التي اختارها لنا القمر رغم لصوصية أضواء المدينة الشاحبة. سكنا أعلى طوابق برج التقارب؛ وسكنتنا السعادة. كانت الليلة الأولى التي رأيتكِ فيها على سرير، والليلة الأولى التي رأيتكِ فيها تصففين شعركِ أمام مرآةٍ تفيض عن حاجة وجهكِ، وتتيح لكِ معرفة تفاصيلكِ الحصرية؛ فانفجرت غيرتي من عينيكِ، كمن يريد أن يقطع عليكِ تصوفكِ في مفاتنكِ. قلتُ لكِ:

- اليوم كل لوازم الرومانسية متوفرة لكِ؛ عليكِ أن تكوني جميلة، وإلّا أفسدتِ على الطاولة ضمكِ، وعلى السرير احتواءكِ، وعلى المرآة تمعنكِ.
- لم تنتبه أنك تسهب، لا أحتاج لأغراض الرومانسية وإنما هي من تحتاجني.
- ولماذا تحتاجكِ؟!
- حتى ترضي نفسها بي، أو قل حتى تأتي أنت وتسميها لوازم الرومانسية.
- ليس لطيفًا أن تمنحي المسميات أسماؤها، وأنتِ مغرورة في الوقت

نفسه؛ فالمتودد يعطي، ومن يعطي يتواضع، ومن يتواضع لا يتعالى، أرأيتِ؟ إنها سلسلة واحدة.

- أرأيت أنك لست أيًّا من حلقاتها.
- ولا أنتِ. قلتُ ضاحكًا وأضفت: لكن لا تقلقي سيأتي الصباح، وتصبحين سلسلة مكتملة من الدلال، أضرب بكِ ظهر المدينة اليائس من البهجة.

قمنا وقد سبقنا الضوء إلى الفناء. كانت أشعة الشمس فاترةً وخائفة، تتشبث بالستائر البيضاء وكأنها توشك على السقوط؛ فيما كانت السيارات تطارد أبواقها، وأصوات البشر تتعارك باختلاف نبراتها مع ضجيج الآلات والمكائن. الصباح في المدينة أقل بهجةً منه في القرية؛ هنا تبدأ دوامة القلق منذ طلوع الفجر ولا تنتهي إلّا بالاعتياد عليها، ومن ثم يتملكك صداعٌ مجاني تكتشف مع الأيام أن المدينة اليمنية قد كافأتك به مقابل عدم مجازفتك بالتفكير في إقلاق عشوائيتها.

ما من شيءٍ يلحّ عليّ لأنسجم وسط هذا الارتباك المعمّم سوى تأمل وجهكِ الصباحي يا سيدة البدايات. فلنستعد إذًا لترتيب برنامج سياحتنا، ولكن عليكِ قبل ذلك أن تمنحيني الوقت الكافي للتنزه فيكِ، حتى أستطيع أن أرسم الخارطة المناسبة لنزهتنا العرائسية. لا بد أن يلهمني تمشيطكِ لشعركِ الغجري كيف أتغلغل في وجهتي القديمة دون أن أصطدم بالبيوت الزجاجية، ولا بد أن يرشدني نكشكِ في علبة المكياج إلى طريقة فريدة أنبش بها معالم

المدينة، ولا بد كذلك أن تخرجي من حمامكِ بصفاء يضاهي دقّتي في انتقاء مكانٍ تتبرّج فيه الأجواء المحصّنة من غبار الأزقة والباحات.

لنبدأ فسحتنا العرائسية من عمق التاريخ. أوقفنا يومها سيارة أجرة قاصدين المتحف الوطني. التاريخ في مبنى واحد، هكذا كان الانطباع: أن أعثر على الإرث في مساحة صغيرة احتفظ بها المورّث لنفسه، ثم بادلناه عنها بسطوٍ خرجنا منه خاسرين. لم أتوقع أن تكون هذه فقط حصيلة البشرية التي مرّت من هنا. ما يعرضه المتحف أقل بكثير مما تلزمه به أصالة المضيف. قلتِ لي ونحن واقفان أمام تمثال برونزي حميري، بعد أن انقضى أكثر من نصف الجولة:

- هذا شحيح بالنسبة لأرض مرشحة لأن تصنف أول موطن للبشرية.
- ما ترينه ليس سوى فائض حاجة اللصوص من التاريخ، نضب الحاضر فامتدت أيديهم إلى الماضي، لن تصدقي أن المعروض من هبة الحضارة العربية في متاحف أوروبا يفوق معروضهم من إرثهم الخاص.
- لمَ قلت عليها هبة؟ رغم أنهم ابتاعوها من اللصوص ولم تقدم لهم كهدية.
- حتى لا أقول إنها إرث لم يصنعه أجدادهم.
- ترى هل ستعود يوما؟

- لم يعد يهم، ما يهم هو: هل سنعود نحن؟
- حسبنا الله ونعم الوكيل فيهم.

خرجنا يومها نحو الميدان العام في المدينة؛ "التحرير"، هذا الاسم الذي يؤثّث المكان بسخاء. هنا مهد الثورة، والخطوات الأولى للحرية، والعبور الوليد للقيم والمثاليات. هنا الرمزية والجلالة والانتصار الحميم. لكنه بدا وكأنه يعاني شيخوخةَ أحلامٍ لم تنضج على امتداد سرمدية الليل، أو كأنه مثقَل بجور خطوات المتسولين والمسؤولين، منهكٌ من التشابه المريع بين الماضي والحاضر، بين الأسماء والواقع، رغم تباين الاسم مع دلالة اللحظة.

عبرنا جانب الميدان نحو موقف الباصات وسط زحمةٍ تقتنص أعين الباعة. كنّا نتقمص المكان، ونشرُد بتكلف نحو البيوت الشاهدة على الثوار، عسى أن ترمقنا بعبارةٍ منسية في أكناف الارتدادات التاريخية المهولة. ليتهم لم يلقوا صرخاتهم المشحونة بكبريائهم إلى الجدران، حتى لا تتحجج الأجيال بأن الطوفان هدمها أو أن طوب النسيان أُقيم على كاهلها. كيف تُنسى الأهداف بهذه البساطة؟ ألم يمضوا منتعلين الموت الذي حوّله خوفنا إلى شركٍ نقع فيه بالمجان، حتى دون أن تمسّنا شجاعة الثوار؟! اعتمروا الشهادة وذهبوا على سروج نبلهم، وخلفوا لنا المنايا في أهازيجهم وهتافاتهم، لنشتاك بها ثم نلقى حتفنا مسمومين بوخز ادّعاء الوسطية والحياد والرشد والتفاهة، فيما الثورة الملقاة على جنبات استسلامنا يخنقها اسمٌ يتنكر بالتحرير، هو ذاته الوجه المتسلل من بين أزقة الأحياء مثل دخان السحرة وغبار البيوت المهجورة.

انسحبنا من التحرير نحو أعماق التاريخ، كما تسللت قبلنا الخطوات الثائرة نحو وجهة المستقبل. ما هذا التضاد الذي يمزق الميدان على نحوٍ مؤلم؟

- كيف لنا أن نصل إلى دار الحجر؟ أسال سائق باص عن خريطة جديدة نسلكها إلى مزار أفاجئكِ به.

استقلّينا يومها أكثر من وسيلة نقل حتى وصلنا إلى المبنى الحجري الذي يعلو صخرةً شاهقة. قلتِ إن تموضع أحجاره على الصخرة يشبه تدرج اللؤلؤ على التيجان.

- ما هذا التشبيه المخادع للخوف؟ قلت لك.
- وكيف يكون مخادعًا؟!
- لأنه بُنيّ حصنًا لا تاجًا؛ الحاجة إلى الأمان أوجدته، لا الميل إلى الزينة. يُذكر أنه بُني في عهد الإمام المنصور على أنقاض قصرٍ سبئي كان يُعرف بحصن ذي سيدان، وقد بناه الحميريون عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد، ثم دمّره الأتراك وأعيد ترميمه في عهد أحد الأئمة.
- ماذا أسدى إلينا الماضي غير إرث الحروب والفجائع والهروب من الموت؟
- منحنا صخبًا نفسيًا شديد الحساسية تجاه فرط الاستسلام لكل ما قلتِ عنه إنه قد أُسدي إلينا من حروب وفجائع وهروب، ألم تُنقل إلينا الإرادة التي بنت الحصون على الصخور وشقت طريقها عبر

صميمها عبر سلسلة زمنية توارثتها الأجيال سميناها نحن بتباهٍ حضارة؟!

أستنجد بذلك اليوم لينقذني من جحيم اللحظة التي تخدش ببطء صفو ذاكرتي الحافلة بجولتنا العابرة للزمن. أين سأجد نجدتكِ إذًا، ما دامت المعالم لم تجسّدكِ؟ وما دامت النقوش لم ترمُز لكِ كعشيقة فطنة خلَّصت عاشقها من اغترابه عن نفسه، أو كزوجة أسدت للنساء من بعدها معروفًا في فهم الاشتياق بدلًا من مجرد حفظه؟ أين سأجدكِ حتى يسمعكِ هذا اليوم الجاثم فوق صدري، وأنتِ تتحدينه قائلة: ها قد عدتُ لك قبل ألف يوم، تجاوزتهم جميعًا، وجميعهم يشبهونك، لأنتزعك من الآن إلى الأمس الذي كان يشبني، ولأتخذ من الغد الذي لن يشبهك مسكنًا وزمانًا. البقاء لي، والموت لعمرك أيها اليوم الذي تشرحه ساعة عتيقة على حائط منسي.

عدتُ بكِ مع الغروب إلى المدينة. ذراعي تحيط جيدك ونحن نمضي على رصيف الشارع حيث يقع الفندق. الأعين تطالنا بنظرات بعضها مستغرب وبعضها الآخر متحسّر على سلوك شباب هذه الأيام، بينما الشفق يكشف عن شراسة الليل وهو يهشم النهار في عمق السماء. وفي الأفق، جبل نقم يذود الغبار والبرد بمنكبيه عن المدينة؛ حتى لا يظن القاطنون أن اللعنة قد حلت أخيرًا، وأن مثلث المقولة الشعبية "البرد والجوع والمخافة" قد اكتمل رسمه بقلم القدر، أو بطبشور متآمر، لا يهم. فالفاعل لا يعنيهم بقدر الحادثة، وأعينهم الكسلى تدل على ضيق فاقة التتبع، فيما أعداد السجون التي

يحرسها الجناة تعزز فرضية الخوف من التدقيق والملاحظات.

يوم مشروط بالمتعة واللهو هو ما زارنا في الصبيحة التالية، فاكتشفت فيه أنكِ من جلب الحظ للعمر وللبدايات. اخترتُ يومها أن نترجل الشوارع نحو الحديقة العامة لنتعرف معًا على وجه المدينة الحضاري. مشينا بمحاذاة تلك البيوت الطينية اللون، كأنها نبتت من الأرض نفسها، توحي بأنها خرجت من باطنها بذورًا حفزها الإنسان لتنبت، غير أنها خرجت بهيئة موحشة أشبه بمومياوات تحرس تاريخًا مهووسًا بالتمرد والكذب.

واكبنا المارة متوغلين عبر الأزقة والممرات الضيقة، نمشي معهم على أرصفة متعرجة يحتضن كل واحد منها على الأقل أكثر من متشرد، ومعهم مجنونان أو ثلاثة. مضينا كأننا نجدل الأفق نحو وجهة تضمحل في النهاية، مثل جديلة تنفرط خيوطها.

التفتُّ إليكِ، فإذا بتناقضات الشارع المخيفة تسكن في عينيكِ المتسعتين للتو. كنتِ تمسكين بطرف قميصي وتتعقبين خطواتي المتقدمة عليكِ وأنتِ وجِلة من تفاصيل النزهة إلى واقع لا يجامل زواره. هنا لا معالم سوى وجوه كسلى، وأقدام حافية، وثياب ممزقة، وملامح أنهكها التعب حتى اكتفت بتجاعيد تشبه تشققات نزيف العمر. هنا قعر ضخم يتصارع مع اتساعه المسكون بالغلاء والبطالة والتفاوتات الاجتماعية.

إليكِ يا خائفة من الزحام، أقدّم نفسي مأوىً لتنقيبكِ عن الأمان. لوذي بي،

ودعينا نمضي كطيور تركب الرياح، تقتل ببهجة تحليقها تبختر الجسور. هيا قبل أن ترصدنا الخيبة، وقبل أن تغيّر الأنفاس خريطتها إليّ.

أحب أن أمتلئ بكِ وبمشاعركِ المتقلبة مهما كانت ضارية. أخاف فراغاتكِ أكثر من خوفي من الموت. ما زلت مبتدئًا في الاشتياق، فلا تظني أن شيئًا سيطفح من الخواء داخلي، حتى لو كان حنينًا حارًا إليكِ، مادامت فُوّهتي العاطفية عاجزة عن الامتلاء قبل ابتلاعكِ. أنتِ المرأة التي أخشى أن أجرّب حبها عن بُعد مرة أخرى، لاسيما وقد بدد القرب طيف البعد الذي طالما سحرني اعتزاله.

بعد ألف ألف وجه، ومئة زقاق، وعشر طرق، وكذا ألم، ووجع، وقهر، وتعالٍ، وكرش منفوخ، وساق مبتورة، وحلم مشنوق، كل تلك التي عجزنا عن حصرها، تجاوزنا الوطن بكل حدوده الغارقة في الظلم والفساد والفقر والمعاناة، حتى وصلنا إلى الحديقة المنزوية في ركن المدينة. كانت مثل اللصوص في هذا البلد؛ زيجة لأكثر من وظيفة، تبيع الوهم، وتؤجل الوجع، وتعلم الناس كيف يرحّلون الصعوبات، وكيف يقنعون أنفسهم بتبادل الابتسامات مع الأقنعة.

دخلنا الحديقة لنجد أنفسنا فجأة بين الناس من جديد. إلا أن هؤلاء كانوا مبتهجين، وهو ما جعل الهدوء يحيطكِ على غير عادتكِ حين تكونين في الشارع. تلاشى اختفاؤكِ خلفي، وراحت خطواتكِ المتأخرة تواكب خطواتي. كنتِ هنا طفلة مندهشة بالألعاب، تعجبكِ جميعها، إلا أن

الصرخات الصادرة من لعبة المراجيح الدوارة أثارت استغرابكِ من المتعة التي تتشظى من تحليقهم وكأنها قذائف رعب.

- كم هم جبناء، وهم يصرخون رغم المتعة. قلتِ لي.
- الموقف مرعب فعلًا وممتع أيضًا.
- هيا نجربه. تعلم أن لعبة المراجيح أكثر لعبة تعجبني؛ وأنا صغيرة كنت أربط حبلًا على فرع شجرة المشمش. تعرف أن الأرجوحة هي الشيء الوحيد الذي يشعرني أن الفيزياء تخدمني!
- قلت ضاحكًا: لا عليكِ، العلوم بقوانينها مسخرة اليوم لخدمتكِ. انظري إلى العجلة الهوائية دعينا نجربها أولا.
- أخشى المرتفعات.
- إذًا، هيا نكسر عقدة المرتفعات.
- لا يا حامد، أرجوك أظنها مخيفة.
- بل سنجربها، ترجيكِ يحفز حماسي لتجربتها أولًا.

صعدنا معًا إحدى عربات العجلة الهوائية، وجلستُ في الكرسي المقابل لكِ. كنتِ تضحكين بفرح، وعيناكِ تدوران على المكان كفصول السنة. شدّكِ مشهد طفلة صغيرة ترتدي فستانًا أزرق مخمليًا، وهي تبكي رافضةً الصعود، بينما كان والداها يغريانها بالمتعة المرتقبة. وما إن بدأت العربة بالدوران، حتى تحولتِ أنتِ إلى طفلة بثياب امرأة؛ لم تستطيعي النظر إلى الأسفل، تشبثتِ بالساتر الحديدي الملتف حول العربة، وملأ صراخكِ الفضاء.

أتذكرين يا سلوى بماذا كنتُ أُسعف صرخاتكِ حينها؟ كنت أقول: "أحبك" بصوت شبه مرتفع. صدقيني، لم أكن أحاول أن أُسمِع المدينة معراج صدقي إلى السماء، كما قلتِ لي ذات مرة، فلا أحد يعنيني أن يسمع سوى أنتِ. كنت فقط أريد طمأنتكِ، وبحثتُ عن كلمة تُهدّئ خوفك فلم أجد أجمل منها.

وما إن توقفت العربة وحان دورنا للنزول، فررتِ محمرة الوجه متعثرة الخطوات. وبعد أن هدأ خوفكِ، اعتلت البسمة عينيكِ، ونبتت من شفتيكِ ضحكة صغيرة.

❊ ❊ ❊

٤

ماذا بعد؟ أتريدين المزيد من الذكريات؟ لم أعهدكِ إلا امرأة مهمومة بالمستقبل، مغمومة من حاضرها، تعيش الماضي على اختلاف تفاصيله. هل أورثكِ الفراق حزنًا حتى صرتِ تكرهين الماضي لمجرد أنني أنتمي إليه؟ أتعرفين! لو أن الذاكرة تثقلكِ، لما برحتِ مكانكِ ولما ترنّحت بكِ سنين الفراق، لبقيتِ لي كما عرفتكِ؛ رهينة الصبابة والحنين.

الأيام يا سلوى في السجن مؤلمة، وذكريات الحرب تُصحّر ذاكرتي. ليت لي ذاكرة لا تتآكل مثلكِ، لكنت أبقيت مساحتها الشاسعة لكِ وحدكِ. كنتُ سأعيش فيها معكِ فقط، منسيّين ووحيدين، نلهو بلا وطن يتعقب حياتنا، وبلا بالٍ مثقل بالهجرة والعبور. كنتُ سأعتزل الوجود كما يحلو لي، وأترك الجحيم الغاضب يركض حيث يشاء، وأترك الوطن المهووس بالموت يمارس هوايته بعيدًا عن رأسي وعن قلبكِ القاطن فيه.

منذ أيام، ونحن نتقاسم وجبة واحدة من الأرز نصف المسلوق، ونشرب لترًا واحدًا من الماء؛ هذه هي حصتنا في السجن. لا أدري ما الداعي لقول هذا الآن، لكن ذكرته على غرار حديثي عن ذاكرةٍ مستباحة بالوجع، لم يبقَ لي منها إلا أنتِ، أما البقية فمستوطنات كاليمن المبعثر.

بالمناسبة، قبل أيام أضرب نور الدين عن الطعام. ذلك الفتى الذي التقى

بشبابه على عتبة الزنزانة، فتحمس للتضحية العمومية بدلًا من أن يتحمس لمستقبله. أراد أن يُكمل سلسلة نضالاته الصغيرة في السجون، بعد أن خُدع بالحيلة الأكثر رواجًا: "الدفاع عن الوطن". قيل له إن على عاتقه يقع إنقاذ حدود بأكملها مسيجة بالغزاة، لكن عليه أيضًا أن يستعين بغزاة من نوع خاص يُتقنون الإغاثة، لأن غيرهم عديمو العون، وذلك حتى يتمكن من إتمام مهمة نجاته. إرشادات متداخلة ومعقدة لم يجد ذهنه وسيلة لترجمتها سوى الارتماء وسط لهيب الحرب.

وهكذا وصل إلى هنا بعد أن شيّع ثلاثة من إخوته أغرتهم الفكرة نفسها؛ فكرة "تخليص الوطن"، وقادهم إلى مصيرهم التلاعب ذاته بالمفردات، والعبارات التي تُفرز الغزاة تبعًا لغريزة المحتل لا وفقًا لشهية العدل.

دخل نور الدين في إضراب مفتوح احتجاجًا على الوجبة الواحدة التي تُقدَّم. تمنيتُ لو أضرب احتجاجًا على بقائه هنا، على عمره الذي يُهدر مكبَّلًا تحت وطأة الظلمة والهراوات، فيما هناك عالم موازٍ مختلف تمامًا، يُبجَّل فيه الإنسان. عالم حديث وأنيق، تطور فيه كل شيء، حتى المفردات نفسها أخذت نصيبها من التقدم، وأصبح للنضال معنى آخر؛ معنى أرقى من إضاعة العمر من أجل الجماعة أو الأفكار. معنى جديد يتبادل فيه الإنسان والأفكار الأدوار بسلاسة ونضوج، فتُسخَّر الأفكار في خدمة المجتمع، ويُعفى الإنسان من وظيفة ممارسة تطرفه وحيدًا.

قال لي عن أمه المعتزلة في قفر الترمل إنها وضعت جدولًا عادلًا تنظم به أيام

ندبها، لتوفر على نفسها المرهقة حداد العمر ومشقة عدّ سنين اليتم التي تتناسل في منافيها الشاحبة. وحين أخبرها قبل ذهابه بنيته الالتحاق بالجبهات أسوةً بإخوته "الشهداء"، قالت له: دموعي أقل بكثير من الجمرات التي خلّفها إخوتك داخل جوارحي. ثم سألته: كيف تطلبون مني أن أطفئ الحرائق بدموع تنساب كحمم البراكين؟ فقال لها: سنكون شفعاء لكِ عند الله. فأجابته: وهل أنا مذنبة يا نور الدين حتى أحتاج شفاعتكم؟ إن كان الله سيعاقبني في الآخرة بخطيئة ارتكبتها، فقد استعجلتم أنتم ركلِي إلى النار في الدنيا. كل ذنبي أني أم، أحمل قلبًا يخاف عليكم. مهما خدعتكم الرجولة فأنا أراكم صغارًا على ما تتطاولون إليه غرورًا من شهادة وجهاد وكرامة. أنتم أفراخ يا بُني، قفزتم إلى الفروع وتركتم الأصل: أنا، أمكم التي نبتم منها. صرت أخافكم إلى جانب خوفي عليكم. متُّ ألف موتة قبلكم، وأؤجل دفني حتى أنظف الفجائع بعدكم، وأرتب الجنائز، وأخيط الأكفان، وأضع الزهور على قبوركم لعلّ رائحتها تغري الملائكة بمجيء. هذه وظيفتي، وظيفتي كأم، مهما بوأتكم الشهادة مناصب لا ترضيني.

أعود إليكِ يا سلوى لأذكركِ بيوم عودتنا إلى القرية بعد ظهيرة ماطرة. كان يلفنا رضا وانسجام مع الطبيعة. تمنيت وقتها أن أوقف الزمن، أن أُعطب حركة الشمس وهي تخترق الغيوم، أو أُجمّد المطر وهو يلعق الطرقات. كنتِ أنتِ أيضًا من جوائز الزمن المتوقف، وكنتُ أخشى أن تفاجئيني بالهرب، لكن مسيرة العودة أكدت لي ثباتكِ. من نافذة السيارة كنتِ تنظرين

إلى الأشجار الواقفة وتبتسم عيناكِ، وكأنكِ تقولين: من يذهب يترك نفسه وحيدًا، أما البقاء فلا يورث خسارات.

كنتِ يقِظة وساذجة في آن، تشدكِ الشعاب والهضاب والزهور على الطريق، حتى طلبتِ أن ننزل ونمضي الليل في الجبل، أو نعود إلى صنعاء لنكمل موسم العرس وحيدين. قلتِ لي: أنت تهتم بالمال أكثر من السعادة. أجبتك: لا مال عندي لأنشغل به. فأصررتِ: سأتكفل وأسأل خالدًا قرضًا. ضحكتُ وقلت: خالد لا يقرض إلا كتبًا وأوراقًا لا تصلح لمبادلة زجاجة ماء. أتذكرين حين أضفت ما حسبتِه سخرية منه؟ قلت لكِ: جربي، سيحدثكِ عن ماركس الذي نذر حياته ليُنقذنا من المواقف المحرجة، أو عن جيفارا الذي قاتل سنوات في الغابات غير آبه بالمال، ثم سيخلُص للحديث عن العالم المتزن والعالم المختل.

والآن، من أكون في خاتمة الرحلة؟ التلاشي الضروري أم الأحمق المستفَز ثقيل الدم؟ هل أهملتني يقظتكِ وضاعت بي سذاجتكِ، أم حكمتِ عليَّ أن أكون المكروه؟ أيًا كانت الصورة فأنا قابل بها، إلا أن أضمحل بعيدًا عنكِ. وصيتي الوحيدة: لا تحسبيني هذه المرة أستفزكِ. كوني ساذجة وبلهاء كي تريني بقربكِ، أما أنا فلا خيار لي إلا أن أكون معكِ، حتى وإن شعرتِ أن وجودي عبء على حياتكِ.

- وين تروح يا حامد؟ من فترة طويلة ما جلسنا معك كسابق الأيام.

أرد على صديق لي في السجن ببرود لم يعتده مني:

- ليس اليوم؛ سأكمل ونجلس معًا.
- ربما قال: ماذا تكمل؟

كانت المسافة قد تضاعفت بيني وبينه، بما يكفي لئلا يقوى الهواء على حمل ذبذبات صوته.

كنت أقصد:

أكمل رواية عشقكِ على كتاب. أكمل غزل اسمكِ الحريري بفستان من ورق ترتدينه في عيد شوقنا الأول. أكمل سرد حبي. أريد أن أكمل ولا أريد أن أنتهي منكِ. ماذا لو كانت أوراقي أقل من حبي لكِ؟ وماذا لو كنت سريع الكتابة؟ كيف لي إذًا ألا أنتهي منكِ، وكيف لي أن أنصف حبي! ربما عليَّ أن أتوسل إلى أوراقي ألا تمضِي بكِ كما تستجدي الفراشات الشجر المزهر ألا يثمر.

❊ ❊ ❊

٥

كم هي الدنيا قاسية وممتنعة، مهما حاولنا إغرائها أو التلطف في وجهها!

صحوت اليوم على صباح يقذف صقيعًا بدا كأنه صُنع بإتقان طوال الليل. حاولت النهوض، لكن قدميّ ظلّتا عالقتين بين مسامير البرد القارس، تمنعاني من السير بين أجساد المساجين بحثًا عن شيء ساخن أحتسيه. لم أحسن انتشال نفسي إلا على صرخة أحمد:

- نور الدين مات!

قالها دون أن يضع اعتبارًا لآمال أمه التي كانت ترى في ابنها حمامًا صنعانيًا يلتقط زهور الياسمين ليطعم بها المآذن الجائعة فتصدح ممتلئة باليقين والخوف معًا. تمتمت في داخلي: لعله التقاعد المبكر يا أم نور الدين، التقاعد الذي يكبر فيه العمل قبل أن يذبل العمر.

صرخ سمير، وقد خاله خيالًا خصبًا أكثر منه واقعًا:

- رشّوه بالماء، ربما أغمي عليه من الجوع والبرد!

صاح الجميع باتجاه باب الحراسة: أعطونا ماء، الولد سيموت.

طال الصمت، ثم جاءنا صوت بارد ينتمي إلى ضمير مريض، ضمير معلول لا يتكئ على الإنسان في معادلة الحرب:

- لم يقدّر النعمة التي يقدمها له الوطن، ويأكل من خيره، لكنه تعود على العنتريات منذ أن التحق بالفئة الضالة لمحاربة وطنه.
- قلت: الفاتورة ندفعها جميعًا، حتى أنت. كلنا ضالّون.

بعدها جاءوا، وفي عيونهم تفضل مُصطنع، ومدّوا عبر فتحة صغيرة كأسًا بلاستيكيًا متسخًا مليئًا بالماء. تناول أحمد الكأس وأسرع إلى جسد نور الدين. بدا المشهد كولادة متعسّرة بلا قابلة. وجوه صفراء متعبة، عيون لم تحسم ولاءها للبرد أو للدفء، ودعوات متلعثمة تنزلق من أفواهنا. امتص جسده الماء القذر كما لو كان النجاة، وطفا أنينه كأنفاس بجع متعرّج يصعد نحو السماء. عادت رموش عينيه تقاوم إغراء الموت، ودخلت يده المرتجفة أبواب الحياة من جديد، حاملة روح أمه قبل روحه. فشل نضال نور الدين في التضحية التي طمح إليها، لكننا نجحنا في توسيع رقعة السخط حتى وصلت شراراتها بزّات العسكر.

لو لم يتدارك الحراس اليوم الوضع بتقديم ما تصفه بشاعة السجون "تنازلات" لحدثت حالة من الفوضى والصدامات. سمحوا لنا، مع برد المساء، بممارسة بعض طقوس الحياة العادية: استحمام وغسل ثياب. حين دقّ الباب الحديدي ثلاث مرات، صاح الحارس بصوته المفزع:

"لكل واحد منكم خمس دقائق للاستحمام وغسل ملابسه."

كانت فرصتي إذن لأهديكِ إلى الماء، يا سلوى؛ لتغسل صورتك الغالية

ذاكرتي المتعبة، وأمدّدك على حبال غسيلي الفارغة. نحن الذين تعوّدنا التحليق فوق المستحيل. الذين احتضتنا رياح اللهفة بحرارة واهتدت أرواحنا بشعاع اللقاء. يمارس خيالي معكِ لهوه المعتاد ببرودة ما كان لها أن تكون بهذه القسوة إلا لأن المسافات قد ناءت بكِ بعيدًا خلف هذه الأسوار التي يكبر داخلها الصقيع.

السجن جدران تحرس الغربة والاعتزال، لكنه لا يشبه الأحضان ولا يعطف على يوميات البشر. لا رغبة هنا في التحديق في الوجوه ولا وقت للتعارف، فالفراغ نفسه يفضي إلى العدم. يميل السجين إلى عزلة قسرية بعد أول تجربة استماع لغيره، إذ يكون العذاب مزدوجًا: استحضار صعوبة الحياة الماضية والحاضرة معًا، ورؤية الطريق المؤدي إلى جحيم أشد قسوة من كل إشارات الخطر التي سبقته.

حين أُلقي بي في السجن تركوا جرح كتفي يلتئم وحده في الزنزانة المنفردة. لم يُسمح لي بمخالطة الأسرى إلا بعد شهرين قضيتُهما بصحبة كتفي المثخن بالندوب. وكان الجميع تقريبًا يسيرون مع أوجاعهم كأنها ظلالهم. من بين الزحام التقطني أحمد، أسير أربعيني يقطن المهجع الثالث. التقينا في الصالة الخارجية، وحاول ببؤسه أن يطبب جرحي. ضمد كتفي بقطع من قميصي حينًا، ومن ثوبه حينًا آخر، حتى كاد جرحي يلفظه إلى العُري. ثم سألني بحنان نادر، كأنه يطعمني مؤونة قديمة:

- حامد، لو بحت لي سترتاح بعدها.

- كيف أبوح لك وأنا مستباح أصلًا؟
- أعرف أنك تعاني، ولذا أريد أن أشاركك همومك. ربما هي عادة قد جرت، لا يمكنك في هذه البلاد أن تعيش إلا وأنت تنزف لتثبت للأرض أنك لاتزال ترويها وإلا ابتلعتك.
- تصدق يا أحمد، إن من يدوسها بخشونة لا تكلفه شيئًا.
- بلى، (يفتح فمه ويتحدث؛ وإن كان يبيع الوهم).
- اعتدت البوح للمذكرات فقط. أنصحك أنت كذلك أن تصنع مأتمك على ورق، وتتخفى وحيدا حين تجدل خيبتك، انتصب منفردا على أحزانك باستقامة تشبه وقفة قلمك في منتصف مذكرة (للألم بقية)، احمِ غموضك كما تحمي نفسك واخلد لذاكرتك بمفردك.

أن يسمح المرء بتسرب سواده خارجه يعني أنه ترك نوافذ الثرثرة مشرعة أمام لصوصية التشفي. هل سبق لك أن شيدت لأحزانك نُصبًا بداخلك بدلًا من آذان الآخرين وبنيت لخيباتك أضرحةً خارج صدور غيرك؟ ما من مراسيم دفن أكثر هيبة وحزنًا من مراسيم يقوم بها شخص بمفرده يدفن فيها فقيده وحده.

- جرب أن تكسر القاعدة، وسأحاول أنا أيضا اعتناق قاعدتك.
- ماذا تريد أن تعرف؟
- هل أنت متزوج؟

علينا دائمًا أن نستيقظ من غفوة التناسي الآمن، على فضول مؤلم ينكأ الجراح الغائرة في قلوبنا المحاربة، فليت من يمسك على مواطن الوجع فجأة بقبضته التي لا تعرف الرحمة أن يمنحنا بعدها ترياق السلو الأبدي.

يدهشني ما حولي إذا ما أظهر مثلي اهتمامه العجيب بكِ ولو قسى عليَّ أحيانًا. لم تكوني أنتِ استفسارًا عابرًا تنتصب خلفه علامة استفهام بانحناء عجيب، كنتِ أنت فحوى أي حديث أتخاطب به مع ما تبقى فيّ من إنصات.

حتى من فاه السجان الغليظ أحشد صمتي لاستقبالكِ بحفاوة الفاتحين أو المنقذين، فلكِ أن تختاري ما تكونين، أما أنا فقد اخترتكِ بجميع ما فيكِ.

يسعدني ألم ذكراكِ في تضاد عجيب لا يجتمع إلا معكِ ولأجلكِ. اقتربي من مسامعي أكثر ولامسي ذاكرتي لتيقظيها من حلم لقياكِ الطويل، ترجلي من ألسن المهتمين والفضوليين وعانقي من خُلقتِ له (أنا الشغوف بكِ). ما زلت إلى اليوم أعاتب نفسي التي أذنت لي بالابتعاد عنكِ، ها أنا سجين لا يخشى نظرات سجانه بقدر ما يخاف أغشية عينيه المرسومة أنتِ عليها. ها أنا مكبل لا تقعده قيود ساقيه مثلما تقعده زيارة عابرة واعتيادية لكِ إلى فؤاده. توضع القيود حول معصمي فيحولها ذكراكِ إلى أساور ملكية، ولا يبرئ آثار تعذيب المحققين إلا بلاسم الاشتياق إليك.

أكتشف كل مرة أزورك فيها إلى صدري، بأن القلب أضعف المخلوقات وأقواها، لم يستطع حماية نفسه منكِ، ولن تستطيع أية قوة أن تسلبكِ منه. ها

أنتِ نقيضان من القوة والضعف، ومن الموت والحياة.

بارتباك وبخوف ومرارة ورأس تدلى إلى الأسفل، قلت لأحمد: نعم.

- وأنت يا أحمد كم لديك أبناء؟
- ثلاثة، ولدان وبنت.

قبل أن نتم بطاقة التعارف صاح بنا الحارس: هيا، كل واحد إلى مهجعه.

هو المهجع إذن.

بالفعل هذا ما أحتاجه، أنت محق أيها السجان، هناك تزورنا الأحلام لا الأسئلة، هناك تتعرف علينا الجدران دون فضول. نتصالح مع أنفسنا ونهادن ذكرياتنا باتفاق مكتوب على ورق التناسي. نكون أحرارًا في خلوتنا بتحديد مواعيد زوارنا ومدة إقامتهم. أراكِ هناك إذًا في الأمنيات، وفي اليقين، وفي كل مكان يعج بالوصال خارج أسوار الحبس.

بعد ذلك تعودت على لقاء أحمد عند كل فسحة نقضيها في السجن. تعلقت به أكثر من غيره. كنت أجد فيه إنسان الوطن المغلوب على أمره. أتمعن في وجهه الذي تشبه استدارته الرغيف المسلوب عنوة من أفواه الجياع. التقيت به المرة التالية وأنا لم أزل على قيد الجرح الذي بدأ يتعافى وفقًا لطرق أحمد المستنبطة من القهر، والخوف، والبؤس؛ لا من التجارب والكراسات. كان قد مر على سؤاله الأول نحو أسبوع، أردت التعرف على مصدر الخوف والخشية والطيبة التي تشع من كل ثقوب وتقسيمات وجه صديقي الطبيب.

في المكان ذاته سألته سؤالًا بدا لي مختصرًا وفضفاضًا:

- كيف وصلت إلى هنا؟!

مرتبكًا بدأ يقص عليَّ غموضه. كان كمن يطرد كبرياءه بعيدا عنه، ثم بحقد كبير على الزمن قال:

- الزمان ظالم يا صديقي، لقد تركت أطفالي في مخيمات اللجوء منذ أن نشبت نار الحرب في بلدتنا، والتحقت بمعسكرات التدريب.

من خبز برنامج الغذاء العالمي على أطفال اللجوء أن يقتاتوا، وتحت راية اليونيسف عليهم أن يرددوا أنشودتهم الصباحية. على ذاكرتهم ألا تتعلق بالجدران؛ لأنه ما من حيطان في المكان، هناك فضاء فقط يتسع للأحلام وأرض تتمنى أن تصبح وطنًا.

يُقال: لتصبح شاعرًا عليك أن تحفظ عشرة آلاف بيت ثم تنساها. لكن عن أي قصائد يُطالَب أطفال المخيمات بحفظها؟ لعل عليهم أن يحفظوا عشرة آلاف معاناة، وألا ينسوها أبدًا، لتكون لهم معلقات من ألف وجع.

كانت العبرة تستحدث نقاط تفتيش متكررة أمام تدفق صوته الهارب من الألم، كالحواجز المنصوبة على خطوط التماس. وأضاف وهو يطوي جفنيه في تقوس عجيب، حتى بدت عيناه كمطريّة طبيعية تقي مقلتيه من عرق الدمع المالح:

- منذ أن قُتل أخي صالح في نزاع تافه على حقل صغير، تحولت حياتي

إلى هامش مظلم. لم تكن المسألة مساحة الأرض، بل كرامة مهدورة وكبرياء قبليّ لا يقبل الإملاء. منذ تلك اللحظة أصبحت ابن الثأر الشرعي، وتركت المدرسة وعاهدت نفسي ألا أرتاح قبل أن أذيق أحدهم الموت. لم يكن صالح مثلي الأعلى، ولم أشعر في يوم أن له فضلًا عليّ؛ لكن دافعًا آخرا وراء الأخذ بثأره يتجاوز العواطف جميعها إلى الحمية والعصبية كان يشعل داخلي غابات الانتقام.

نحن ضحايا بشكل أو بآخر، ضحايا البيئة والظروف يا حامد، لا تستغرب من العداوة المفرطة التي تكبر بسرعة داخل الكثيرين؛ لقد وجدت خصوبتها المجانية وارتوت من ينابيع العادات والتقاليد.

في صباح شتوي قصدت مع ابن عمي سيف الجبل المطلّ على قرية قتلة أخي. خطتنا بسيطة: نطلق النار على أول من نصادفه. بعد ساعة لمحنا رجلًا مسنًا يهرول نحو الوادي، يحمل مجرفته ليحوّل الماء إلى حقله. لم يكن يدري أن خطواته الحثيثة لمنح الزرع الحياة هي ذاتها الخطوات التي تجره للموت.

قلت لسيف: هذا هو.

قال: هذا رجل مسالم لا شأن له، خلفته خمس بنات، حرام أن يُقتل.

قلت: أما سمعتَ المثل: "إن صادفت الغريم وإلا فابن

عمه". هذا عارنا، وسأحمله وحدي. سأصوب عليه أنا. دع جهنم لي.

قال سيف: العار أن تقتل شخصًا لا علاقة له بمقتل أخيك.

كان الرجل يقترب ونحن متحصنَين خلف صخرة كبيرة. لا أدرى لماذا كنا شديدي الحذر تجاه رجل أعزل إلا من مجرفته الصدئة، خائفَين من مواجهة شخص لم يخبر الإجرام ولا عرف القتلة!

كان كلما اقترب أكثر ازدادت ضربات قلبي، وانخفضت كلمات سيف المتوسلة. ما زلت أسمع كلماته المتقطعة إلى الآن، كانت تهز ضميري كيدي طبيب يأس يحاول إنعاش مريض ميؤوس منه.

فوضى المشاعر عصرتني: خوف وغضب وإقدام وتردد. سبابتي ابتعدت عن الزناد إلى مخزن الذخيرة، لكن ثقل العيب والعار أعادها.

بعد لحظات بدت دهورًا أصبح الرجل في مرمى نيراني، وسيف لا يزال يتوسل أن أدعه. جمعت أنفاسي وأطلقت رصاصتين نحو صدره، لكن الارتباك جعل الرصاص يستقر في فخذه. صرخ الرجل صرخة حسبتها نفخة إسرافيل، استغاث: "يا غارتاه!"، فتخيلت العالم بأجمعه واقف على سفح الجبل يراقب فعلتي. بعدها بلحظة سمعت صوت رصاصة قاتلة سكنت رأس الرجل المستلقي على الأرض. كانت تلك الرصاصة من رشاش سيف.

تجمدت مشاعري منذ تلك اللحظة؛ لم أعد أبالي أن أكون قاتلًا أو مقتولًا.

سحبني سيف من قميصي، وأنا غارق في بلادة لا أسمع سوى صوته: "أسرع!" يتبعه سيل من السباب. كانت الشمس تشق السماء معلنة انحيازها للحياة وليوم جديد، والعصافير تزاحم أصوات الطلقات بمرحها، فأحسست أني عدو الطبيعة وغريم المشيئة.

في ريف محافظة حجة، حيث الجبال الشاهقة والطرق الوعرة، كنت مثل تلك القرية الشاردة عن الحضارة البشرية؛ شاردا مطاردًا، حلت عليّ تعويذة الثأر كما حلت عليها لعنة السلطات المحلية بحرمانها من المشاريع التنموية.

افترقت عن سيف في سفح الجبل. اتفقنا أن يهرب إلى الحديدة، للاختباء من ملاحقة الأمن في بيت أخته، إلى أن تهدأ الأوضاع، وأنا سأبقى في الجبل، وسيزودني زكريا، ابن أخي، بالأكل والشرب.

مكثت سبع سنوات بعيدًا عن الأعين. في تلك الفترة تزوجت أزهار، حبيبتي التي كانت تعيدني للحياة كلما لقيتها خلسة. كنت أقبلها وأقسم بشرف شفتيها أنها ستكون لي، وأن لا أحد سينتزعها مني. الحب يا صاحبي يفقدك الإحساس بسواه، لكني حين تملكتني كراهية قتلة أخي اكتشفت أن الحب هش، تتسرب إليه حصى الانتقام.

قد توافقني بأن الحب يتصدع لكنه لا ينهار، وأجمل ما فيه أن أطلاله تقاوم أقسى الظروف، وتتحول مع الزمن إلى معلم أثرى تزوره في سفرات الحنين.

سأل حامد: وكيف انتهت قضية الثأر؟!

أجاب أحمد:

- تدخلت القبيلة بعرفها لترمم ما دمرته، أما الدولة وقضائها وأجهزتها فغير معنية إلا بإبرام عقود بيع النفط والغاز وتعيين أبناء النافذين في أسلاكها الشائكة العسكرية والدبلوماسية. جرى الصلح على الطريقة القبلية: ذبح ثيران، إطلاق أعيرة، ارتجال قصائد، وكأنها حفلة ختام لا حلقة من مسلسل دم وثأر. بالأمس ألزمَني العُرف بالثأر لأخي، واليوم يُلزمني بالصفح إكرامًا للمتدخلين، ويفعل الشيء نفسه مع الجميع. وبعد إشهار الصلح بشهرين تزوجت ابنة عمي نورا.
- أخت سيف؟
- نعم، كان زواجي من نورا ردًّا للجميل لبيت عمي ولسيف الذي شاركني الثأر، فكان لزامًا أن أشارك أخته حياتها. لم تزر نورا قلبي يومًا، لكن العادات دفعتني إليها كما دفعتني للثأر.

زواجي من نورا كان انتصارًا آخر للعادات والتقاليد. لم أتخيل أن نورا ستتخطى عتبة كونها أختي الصغيرة. كانت في الثالثة عشر من عمرها حين تزوجنا. وكنت أكبرها بثمانية عشر عامًا. في ليلة الدخلة مارست الإجرام بصورة أخرى أقبح من القتل، دموعها مزقت صمت الليل، بينما كنت أنتقم لرجولتي المنهزمة بجسد طفلة لا تستوعب. وبقيت آثار الجريمة ظاهرة على نورا في كرهها لي، ولكي

ترتاح من ثقل حمولتها ربما ستوزع إرثها من الحقد والكراهية وشهوة الانتقام على الأبناء.

جلس أحمد مطأطئ الرأس، يهرب بعينيه من نظراتي. كل ما قاله كان صدى لما في داخلي. ولأني أفهمه، حاولت أن أواسيه بخطاب من منهج الاحتيال على الواقع والحياة.

حاول أحمد الهروب من ذلك الواقع برش نظره على الجدران ووجوه المحيطين باحثا عن حبة سيجارة يبتلع دخانها لعلها تحجب عنه رماد ذاكرة لا تكف عن الاشتعال.

لا أدري يا سلوى، لماذا تنتابني قناعة أن الأمكنة تتناظر حد التماثل، مع فارق وحيد هو حرية لقاء من أشاء متى اشتهيت خلف أسوار السجن. فالحياة داخل السياج وخارجه تكاد تتطابق: هنا كما هناك، شعب بلا إرادة، وألم، وقسوة، وجور، وهزيمة، وعدو، وحليف منزوع القوة.

٦

إليكِ سرّ التحول السلوكي الذي مهّد لرحيل أخيك خالد. فكما تنقّل بين الانتماءات الفكرية والحزبية، تدرّج أيضًا في سُلّم الاختفاء حتى بلغ الغياب، ذلك النوع الذي يُعَدّ صاحبه في عداد الموتى. قبل ذلك كان يشهر انحطاطه كمن يتباهى بتعاسته، وقد تحوّلت ثقافته الواسعة وحبّه للآخرين وحسن سلوكه إلى أقنعة تخفي أسلحته الفكرية.

كان خالد ناقدًا ذكيًا بفضل معرفته العميقة بالتيارات التي انتمى إليها، يستعرض تجاربه السابقة جاعلًا من توبته عنها مادة لخُطبه المشتقة من عناوين الجهاد والتوبة. غير أن الوباء الإرهابي بدأ يتفشّى في ذهنه بعد موت صديقه نادر، ذلك الشاب الذي تعرّف إليه أثناء دراسته الجامعية.

أتذكر أول خطاب ألقاه خالد في مجلس عمار، إذ أعلن حرب الانتقام لنادر من كل قيمةٍ بقيت، وجعل من موته ذريعة للتخلي عن المبادئ. قال: "كان نادر الأذكى في فصله، طلعته نادرة كاسمه، وحضوره غريب كموته." ثم أضاف، بلغة قاسية، أن الحياة لا تحترم إلا من يُحسن التغلب عليها. كان يلتقط الأخبار الميتة من الصحف كمن يحشو نفسه ببارود الأنباء، ويردد:

- في صنعاء لم يمت أحد بسبب مطالعة عابرة أو قراءة عابرة، وحده نادر كان يتجرّع الموت بملعقة من ورق؛ ورق لم يزوده بالمعرفة بقدر ما فضح له قبح العالم.

مات نادر إذن بحمى المعرفة، بداء انكشاف عورة العالم أمامه. وكان خالد أكثر من فهم ذلك.

لم أكن أعتبر خالد صهري بقدر ما اعتبرته نافذتي إلى العالم؛ أستاذًا علّمته الحياة كيف يتأمل فعاد ليعلّم الآخرين كيف يفكرون. كره أساليب التلقين وعدّها سبب التردي الفكري والمعرفي. وحين كان اشتراكيًا هاجم الأحزاب الدينية واعتبرها آلات لإنتاج قطعان بشرية محرومة من التفكير، مسلوبة العقل لصالح رجال الدين ومنظّري الجماعات.

بطريقة المقارنات نفسها التي استخدمها لاحقا في تجنيد الناس لصالح تنظيم القاعدة حببنا في الاشتراكية لتصبح مبادئها واضحة لنا، كأن يردد علينا في كل درس توعوي أن نضع كل ما نسمع أو نقرأ في مصب عقولنا وسيتم فرزه تلقائيًا لصالح المنطق ومقتضيات الواقع.

كان يقول: أجمل ما في الليبرالية والأحزاب التقدمية أنها تجعل لك ولأفكارك ثمنًا تحدده قوة أرآئك ومنطق اختيارك. أما حين أصبح أميرًا من أمراء الحرب فقد احتفظ بأسلوب المقارنات في تعبئة الناس، وتخلى عن مبدأ حرية الفرد في اختيار ما يجده صائبًا، لقد اتخذت تلك الأسس مسميات أخرى: اتباع الهوى، النفس الأمارة بالسوء، الجنة محفوفة بالمكاره.

ما أجمل اجتماعاتنا معه؛ كنّا نكتشف العواصم والزعماء وقادة الأحزاب من خلاله. لكن مجلس عمار تغيّر بعد خلافك معه ومعمر. فقد آلت إدارته إلى

أخيه الأصغر الذي غيّر طلاؤه ولونه، وحوّله من فضاء للنقاش والتثقيف إلى ملهى صاخب بالأغاني الشعبية والرقص الفلكلوري. تحوّل المجلس إلى شاهد على تبدّل مزاج الناس؛ لم تعد المعرفة أولويتهم، بل صارت الحياة المعيشية والمالية أهم.

ما أجمل اجتماعاتنا مع خالد؛ كنا نعرف معه أسماء العواصم والزعماء وقادة الأحزاب. أما مجلس عمار فتركناه، كما تعلمين، بعد المشكلة التي سبّبتها بيني وبينه ومعمر، أخيه الأصغر. تولّى معمر المجلس وبدأ بتغيير ملامحه: كان الجدار الداخلي ينقسم إلى نصفين؛ سفلي أزرق فاقع وعلوي أبيض أفسدته الرطوبة، فقام بترميمه من مدخراته التي جمعها من بيع القات في العيد. صار الجدار أسمنتيًّا أملس، مطليًا بالأصفر الفاتح، فأغرق المجلس بسطوع غير مألوف.

المجلس الواقع فوق مخزن بيت العم علي، ويتصل بالفناء الخارجي بدرج حجري معزول يبعد أمتارًا عن المدخل الرئيسي، كان في الأصل ملتقى للتثقيف والتوعية والنقاش المعرفي. غير أن الشاب الشغوف بالأغاني الشعبية– ذو الشارب الناعم والشعر الجعد والبشرة الحنطية– حوّله إلى ملهى صاخب بالغناء والرقص الفلكلوري. سرعان ما غدت رائحة السجائر تحوم حول البيت، وتكدست عند الدرج زجاجات الماء وعلب المشروبات الغازية التي يتناولها معمر ورفاقه أثناء مضغ القات.

أصبح المكان شاهدًا على تغيّر الذائقة العامة. لكن عمار رأى تفسيرًا آخر:

برأيه، ملّ الناس مجالس التثقيف بسبب الحرب وما رافقها من تعبئة سياسية وشحن فكري يستحضر أحداثًا تاريخية وصراعات طائفية واجتماعية. كما أن تدهور أوضاع المثقفين والمتعلمين منح الناس مبررًا واقعيًا للانصراف عن المعرفة والانشغال بتأمين لقمة العيش.

الواقع الجديد للمجلس أثار استياء سكان البيت، خصوصًا العم علي، الذي لم تعجبه تصرفات ابنه اليافع وكان يعيّره دائمًا بأخيه عمار، معبّرًا عن خيبة أمله من جيل جديد لا يشبه القديم. لكن معمر كان يرد بأن كتب أخيه لم تُجدِ نفعًا؛ فهي لم ترمّم المجلس، ولا منحت صاحبها حياة كريمة.

كانت عودتك مساء ذلك اليوم من لقاء مرام، أخت عمار، هي ما نفاني عن مكاني الأثير. كنتِ تؤدين آخر أدوارك كـ "مرسال محبة"، الدور الذي أغريتِ به تلك المسكينة عن قصد، مستغلة مساعدات عمار العفوية، وهو الذي لا يملّ من ترديد لازمة يقول فيها: "هناك أشخاص يصلحون أن يكونوا أوطانًا أكثر من كونهم مواطنين، ولو قُدِّر لخالد أن يصير وطنًا لأصبح المدينة الفاضلة."

بهذا الأداء "النجومي" دفعتِ مرام للإعجاب بشخص لم يكن على الخشبة، بل في نص المسرحية. وبهذا قضت "تسليتك" – كما سميتها حين سألتك في نهاية تلك الليلة – على صداقاتي، وحوّلت أماكن استراحتي إلى فضاء لا يحفل بي.

غير أن ردّك كان أسوأ من تفاصيل الليلة كلّها: برودك إزاء انفعالي حين قلت

لك: "وهل مشاعر الناس تصلح للتسلية؟ هذه قلوب وعواطف، لا لعب أطفال." عندها فقط انقسم إيماني بوفائك، وعاد شكي بحبك إلى زمن رجوع ياسر من مصر.

سأسرد عليك، للمرة الأولى والأخيرة، ما جرى في تلك الليلة، لا لشيء إلا لتعرفي ماذا يعني وصفي لجوابك ولبرودة ردة فعلك بأنها الأسوأ؛ فأنا أعرف أن ما وصل إليك من خبر هو تطمين عن شجار عادي.

كانت تلك الليلة تنتصب في منتصف الشتاء كإلاهة صقيع، وأثناء ما كانت تبعثر برودتها الشاحبة بين البيوت، كنتُ وسط القرية في مكان معهود بتجمع الناس إليه لتبادل الحديث ذاته وكأنهم يقرأون تعويذة عساها تدفع عنهم شدة البرد فيتوقعون موعد حضور النجوم إلى العنوان السماوي الذي يختلفون على مكانه دومًا لتعلن انتصارها على إلهة الشتاء.

جاء معمر ساعتها وقد تقنع بقطعة قماش توضع في العادة حول الرقبة مستعيضًا عنها لتدفئة رقبته بمعطف عسكري طويل كان قد حصل عليه العم علي قبل التقاعد. كانت الأتربة الممتزجة بخيوط الشال قد غيرت لونه إلى الرمادي الفاتح بفعل زيت الشعر العالق عليه.

هرول معمر نحوي وهو ممسك بيده اليمنى عصا من شجرة الصنوبر، ثم أخذ يشد الجاكت الأسود الذي كنتُ أرتديه من طرفه العلوي بيده اليسرى وهو يقول:

- امنع زوجتك من لقاء أختي أو محادثتها، وإلا جعلتها حديث القرية كما تحاول أن تجعل سمعة أختي على كل لسان.

قلت بالغيرة نفسها التي تملكت معمر:

- تعلَّم كيف تتحدث مع الناس، أنزل يدك قبل أن أصفعك، اذهب وأدب أختك؛ ليست مشكلتنا أن تكون بلا تربية، تعشق وتحب دون أن تنتبه لشرفها. إياك أن تذكر زوجتي على لسانك إن أردت ألا تفقد حياتك.

تلك العبارات المستفزة كانت الثقاب الذي أشعل رغبة الصدام في جسد معمر، ارتقت ألفاظه المستفزة إلى درجة التجريح، بنبرة حادة ومرتفعة. قال:

- أنت وزوجتك بلا شرف وتريدان أن يكون الآخرون مثلكما، إذا نحن نسينا فوادي الناعور لم يزل يتذكر فضائحكما. لعلها حتى اليوم تلتقي أحدًا غيرك في الوادي، اذهب واسأل عنها شجر الوادي التي أظنها تعرفها من أيام ما كنت تختلي بها تحتها لأنها تحفظ الوفاء أكثر منكما.

اخترقتني كلماته كسهام، نسيت مكانة صديقي عمار، وغاب عني خاطر العم علي، وبقيت ألفاظ معمر حادة وضالة تشق لها طريقًا مجهولًا عبر كرامتي لتمزق كل ما يعترض مسارها من احترام.

كنت أنظر إلى الناس وهم يتهامسون بسخرية أثناء حديث معمر، فأدركت

أنهم افتروا على لقاءاتنا قبل الزواج، فنسجوا قصصًا تفوق الكلمات التي تبادلناها، وعدّوا مواعيد لم تقع إلا في خيالهم. عندها تفجرت ثورتي، ولم أشعر إلا وأنا أخطف العصا وأهوِي بها عليه بلا حساب؛ ضربات عشوائية مزقت وجهه وظهره وبطنه، حتى انكسرت يده اليمنى وهو يحاول حماية رأسه.

اندفع الحاضرون لفض الاشتباك، أربعة أمسكوا بي وانتزعوا العصا من يدي، فيما سُحب معمر إلى الخلف يترنح. هرع أهل القرية من بيوتهم رغم البرد القارس، مستدفئين بفضولهم القديم الذي يزدري المعرفة ويقدّس الأسرار الشخصية. عادوا بعد قليل يتهامسون بدوافع العراك ويزعمون عقلانيتهم، كأنهم يسردون بطولات قديمة في "هزيمة الشيطان".

اقتادوني إلى البيت اتقاء تجدد الصدام، لكن ذلك لم يردع عمار؛ إذ حضر مسرعًا، يلوّح بمسدسه ويقذفني بأقذع الشتائم، صارخًا أن أخرج إليه إن كنت رجلًا. كان صوته الجهوري المبحوح يجلجل في أرجاء الحي:

- لو كنت رجلًا لا تختبئ بين النساء يا قليل المعروف وناكر العشرة، تستقوي على من هو أصغر منك! واجهني أنا إن كنت شجاعًا.

تركتُ عمار يتلفظ بما يشاء. عذرت حميته وقدّرت مكانته وقربه، وإن كان تقديرًا متأخرا. شعرت أني انتصرت في الجولة الثانية على الشيطان. وهكذا حزت على قصة حقيقية أستشهد بها عن قدرتي على التغلب على إبليس.

أما صداقتي بعمار فلم تتعافَ سريعًا، رغم إدراكنا أن لا ذنب لأحدنا فيما جرى؛ فلم تكن لي يد في تعلق مرام بخالد أكثر من عمار الذي بالغ في تمجيد مناقب مرشده، كما لم يكن لعمار مسؤولية عن استفزازات أخيه معمر. عرفت لاحقًا أن العم علي كان أكثرنا حكمة، إذ كان يردد أن حماقات أبنائه تسيء إلى سمعة أختهم.

في تلك الأيام قررت الاتصال بخالد لإخباره بما حدث. قلت له إن الوقت قد حان لحسم المسألة وطلب يد مرام رسميًا، حتى نلجم الألسن ونضع حدًا للأحاديث. لكنه كان يومها في سنته الجامعية الرابعة، غارقًا في أحلامه التي بدت له أهم من أي زواج. كان يرى في الارتباط بفتاة ريفية عائقًا لطموحه الثقافي والعلمي، وإهانة لفكرته عن قاعدة "خلف كل رجل عظيم امرأة"، إذ لم يكن يتصور مرام سوى عقبة في طريقه.

جاء رده ساخرًا وبعيدًا كل البعد عن الموضوع. قال إن أمريكا وبريطانيا قررتا غزو العراق، وربما تبدأ الحملة في مارس أو أبريل. ثم أضاف: نحن نحشد لمظاهرة ضد الإمبريالية، وأنت تشتغل خطَّابة! ضع لنفسك قضية أكبر من هذه.

- السياسة تسرق عمرك، لست وكيل آدم على ذريته. قلت له.
- المهم أنني أمتلك شيئًا غاليًا يستحق السرقة.

كانت نبرة الغرور في صوته، يقطعها بين حين وآخر تشويش الهاتف،

فتضاعف إحساسي بتعاليه. خالد، إلى جانب إسرافه في الأحلام، كان مولعًا بالكبرياء؛ يتوهم أن كل الفتيات مغرمات به، وأنه فرصتهن الذهبية. ذلك الرضا الأجوف بطبعه ومثاليته أورثه ما يشبه جنون العظمة، وجعله غافلًا عن أن الاستسلام لهذا الشعور الزائف كفيل بتحويل أبسط الخيبات إلى كوارث مدمرة، تدفعه في النهاية إلى الخضوع لواقعٍ مغاير، كما خضع من قبل لخياله الجامح؛ إذ من عاش على حلو خياله أهلكه مرّ واقعه.

❊ ❊ ❊

٧

وأنا أكتب إليكِ من خلف القضبان، أسمع صراخ الأسرى ومعتقلي الرأي. كل معلومة تُنتزع هنا هي ابنة هراوة سجان، وُلدت في غرفة محقق. لا تفزعني الأصوات خوفًا على مصيري، فقد تجاوزت رهبة التعذيب؛ لكنها تزعجني لأنها لا تحدد موعد دوري بدقة، وأنا أكره الانتظار. حين تصير عقارب الساعة خصمي أشعر بمجاعة فكرية، أعجز معها عن التفكير أو الكتابة، كأن الوقت كله يقودني إلى المصير نفسه، وكأن الزمن قد استسلم، يكرر صوره بلا جديد، ناسيًا أنه دوّار. بدا لي وكأنه تخلى عن مداره، ورضي أن يكون مستقيمًا، يمنحنا صكًّا وهميًا بأن لا مزيد من السوء قادم، مقابل أن نقبل العيش معه في موسم واحد، خارج فصول الفرص.

أخبئ أوراقي تحت الفرش المتسخ ذي الرائحة الكريهة، لتنجو من أيدي العسس، وأكتب وصاياي ورسائلي إليك على أمل أن أعود بها بعد انتهاء حصة التعذيب اليومي.

وحين أعادوني إلى الزنزانة، كان كل شيء يتكرر: الوجوه، الأيدي التي تسحبني، الأسئلة الجاهزة، والضربات التي بت أعرف مواضعها مسبقًا: أين ستسقط الركلة، كم ستوجع اللكمة، وأي صعقة ستخترق جسدي.

الاستثناء الوحيد في هذا اليوم كان ضابط تحقيق جديد بدا غريبًا عن المشهد.

صوته هادئ على غير عادة المحققين، نزع العصابة عن أعيننا ـ وهذا لم يحدث من قبل. كان يرتدي ثوبًا، وعلى خاصرته حزام أسود يتدلى منه مسدس، وفي جانبه الآخر عصا كهربائية. ملامحه باردة، في منتصف الثلاثينات، متوسط القامة والبنية، أبيض البشرة. أكثر ما أثارني آثار التعذيب البادية على وجهه وأطرافه؛ ما جعلني أظنه أسيرًا سابقًا جيء به ليستثمروا خبرته في فنون العذاب.

- إما أن تتكلم أو سيصلك خبر سلوى. أنا صدري ضيق لأمثالك فإياك ومحاولة التلاعب! لن تتلاعب إلا بحياة زوجتك أو بحياة أخيك صادق. كانت هذه هي أول جملة وجّهها إليّ.

للوهلة الأولى أيقنتُ أن لديهم القدرة على الوصول إليكِ أو إلى صادق، وأن شرًّا سيلحق بأحدكما إن لم يُقنعهم كلامي. أخافني المحقق ذو الملامح الباردة والندوب في وجهه وأطرافه، وتمنيت لو أملك سرًا ما أُسكت به نهمه. خلال التحقيق فكرت في اختلاق أسماء وهمية لأشخاص متورطين في الحرب، ثم تراجعت، مدركًا أنه سيكشف كذبي، وأن مصيركما ليس مجالًا للمقامرة. فقلت الحقيقة الوحيدة التي عندي:

- ذهبت بملء إرادتي، أبحث عن رزقٍ وسط حربٍ لا تُنتج سوى الموت جوعًا أو قتالًا أو تشردًا. أردت أن أحوّل أدواتها العنيفة إلى وسيلة نجاة، أن أبتاع برماد بارودها شربة ماء، وأقايض ألغامها برغيف خبز.

ابتسم ساخرًا وقال:

- أنت لا تريد تبرئة نفسك فقط، بل تطلب وسام النبالة! إياك وتصنّع المواقف... من دفعك للقتال؟

أجبته:

- لن أكون نبيلًا ما دمت أضفتُ حطبًا إلى نار الحرب.

كنت اليوم شديد الصراحة أمام المحقق المستجد، الصراحة التي أسماها أبو صقر لاحقا جرأة، أحسست وكأني أتحدث إلى سجينٍ مثلي لا إلى محقق كان قد خبر من تجربته الشخصية في غرف المحققين أن التعذيب النفسي أشد من الإيلام الجسدي، وأن سياط السجان أهون من لسانه. أراد أن يبتزني بكِ وبصادق لأحدثه عن خبايا دوافعي إلا أنه تفاجأ بوضوح مقصدي، شعرت أنه هو الآخر أحس بقربٍ مني وأن كلامي قد لامس ضميره ولكنه قال مكابرا: أكمل معه يا أبو صقر بطريقتك أما زوجته وأخوه فحسابهم عندي.

ثم تركني لذاك الجلاد الذي يضرب دون أن يعرف لماذا يضرب، ويكرر الأسئلة ذاتها دون أن يعي الداعي لرشق المساجين بها. عن ذلك الشخص قلت لأحمد حين رأيت ظفر إبهام يده اليمنى مخلوعًا: التعذيب صنع منه بارعًا في الإمساك بالعصي ونزَّاعات الأظافر لا محققًا يجيد استنتاج المعلومات.

في اللحظة التي خرجتُ فيها من غرفة التعذيب شعرتُ بأنفاسي تغادرني إليكِ

كغيمةٍ نهاية صيف مزّقتها رياح الخريف وهي تراقب بأسى أوراق الشجر المتساقطة، شاعرةً بالخذلان، متمنيةً أن تتماسك من جديد لتجبر ذبولها بقطرات غيثها المبعثرة في جبين السماء.

❊ ❊ ❊

٨

عزيزتي، أخاف ألّا يصلكِ شيءٌ مما أكتب في وقته المناسب، لكني على يقين أن ثمّة قدرًا أفضل يستحقه هذا الشوق الصامد داخلي، بدلًا من طرائق الحنين المألوفة التي أرهقتها الكلمات والمذكرات، وتربصت بها الريبة كلما لامست لذة اللقاء المتخيّل.

أنا وفيّ للتفاصيل الصغيرة، أكثر من العناوين الكبيرة، لأنها تحفظ للذاكرة حياتها وللمفاجآت بريقها، ولولاها لابتلعنا طاعون التوقع. لذا أنسج قصتنا بعناية، أفتعل دراما للقاء المرتقب، أجعل لكل لمسة معنى، ولكل تفصيل مكانًا، حتى يولد حدث خالد يرمز لي ويجسد عظمة حبي الرافض للاستسلام لليأس.

قبل أن تشرع المواسم في جدولة كرنفالاتها المتنوعة، لم أكن قد هيأت كل الظروف لتناسب زمنًا واحدًا، يتجاهل التقلبات ليمعن في الثوابت، لا تغير العواصف من اتجاهاته، ولا تذيبه أشعة الشمس، ولا يتقولب مع الثلوج؛ ألا يستحق هذا العناء الضامن لثبات المحبة أن نصفح عنه هفوة إعجابه بموضة اللعب مع الموت داخل موسم ترويض الحروب.

كانت خطيئة، أدرى، ولكن ما لا أعرفه هي الكفارة المناسبة لذنب تتفرع معاصيه إلى فراق، وإلى شروعٍ بالتخلي عن الحب، وما لا أعرفه حتى الآن أيضا: هل عقوبة شرعها سجان ونفذها قيد وسوط وغرفة مكتظة بموت

الاختناق كافية لتحلل عني الإحساس بالذنب؟ وهل يُرضي غفرانكِ لي؟ أم أن لكلًا أحكامه ومواد عقوباته الخاصة، ولذا نحن نختلف في تصنف القوانين إلى مجحفة وعادلة ومناسبة، وفقا لما يُرضي مظالمنا وانتقامنا، لا إلى ما يرضي القضية.

أعود لكي أمنح نفسي حق العيش في حيز الذاكرة، أما هنا فلا حياة ولا حيز أعيش ضمنه، ولكي أمنحكِ أنت كذلك حق العيش مرتين فلا مشهد يضاهي بجماله مشهد مطالعة حياتنا من الخارج، نتصفحها بحياد كأنها لا تعنينا، نعيد تقييم التصرفات والأحداث ثم نكتشف أننا كنا جزءًا من الخطأ أو أن محور الصواب ما كان له أن يحدث لو بقينا في الخارج كما نحن الآن.

كانت أيامًا صعبة حين تركتِ البيت بعد خلافٍ نشب بيني وبين والدي بسبب بطالتي. جاء أبي ظهر ذلك اليوم، ونحن ما زلنا نيامًا، وصوته المزمجر ينبئ بسخطه. تذمّره من اتكالي عليه وعلى راتب تقاعده، واعتمادي عليه في أعمال الفلاحة، كان قد بدأ منذ فترة، لكنه بلغ ذروته في تلك الأيام حتى وصل إلى السبّ ورفع الصوت.

خرجتُ لتهدئته، فوجدته واقفًا عند باب الحوش الخارجي المبني بعشوائية من أحجار بلا طين أو إسمنت، يربطها بعضها ببعض فقط لتوفير الجهد والمال. كان الحوش يؤدّي إلى طابقين: طابق يخصّ الشرف، وآخر للأبقار، يعمل ساترًا يحجب النساء أثناء الدخول والخروج المتكرر من وإلى المطبخ الحجري، وزريبة تمنع الأبقار من الإفلات.

كان والدي يومها ممسكًا بالمعول، يرتدي ثوبًا رماديًا وحزامًا أخضر من الجلد الصناعي، بلا نعال ولا غطاء رأس. بدا المنظر غير مألوف؛ إذ لم أعتد أن أراه إلا معمّمًا بخرقته البيضاء المخططة بخيوط حمراء. تفاجأت من صلعته التي كشفت مؤخرة رأسه كما تفاجأت من حدة صراخه. قال يومها بصوت أجش مبحوح، والعرق يتصبب من جبينه الأسمر:

- إلى متى ستظل عالة؟ روح دور لك عمل.

قلت بصوت منخفض، أو أنه بدا كذلك بسبب فارق المقارنة بين صوته وصوتي:

- سأفعل. أحتاج فقط من يدينني مصروف السفر إلى صنعاء.
- تقول هذا دائما، من يريد أن يسترزق يذهب والله سيسهل له.
- أقسم لك أني سأذهب في مطلع الأسبوع القادم.

في تلك اللحظات بالتحديد خرجتِ أنت مرتدية جلابية نوم بيضاء وعلى رأسكِ مشبك بلاستيكي ليجمع شعركِ الفوضوي. كانت ملامحكِ الخاملة وهيئتكِ التي تدل على أن الصوت أيقظكِ من نومكِ قد استفزت والدي بشدة ليقول:

- كله عمل زوجتك، لا تفكر في مصدر الأكل والشرب، يهمها فقط أن تنام معك. ثم قال لك بحزم: أنت تحولين ابني إلى مشروع عاطل.

تلك الكلمات الجارحة التي سمعتها من والدي دفعتكِ للرد ولترك البيت لاحقًا. قلتِ حينها:

- ما دمت أنا المشكلة سأذهب إلى بيت أهلي، وإن شاء الله بعد ما أروح يصبح ابنك رجل أعمال.

لم يردّ والدي، ولم يحاول أن يلين نواياك بكلمة تحفظ ماء وجهك. انسحب وهو يتمتم بصوت خافت: أولاد هذه الأيام لا يجيدون إلا النوم. ثم دخل إلى البيت بعد أن علّق المعول في مكانه المعتاد، على العصا البارزة عند زاوية مدخل الحوش الحجري.

لحقت به والدتي وهي تقول: استهد بالله يا رجل، حامد فعلاً لم يجد المال ليسافر إلى صنعاء.

انسحبتُ بعدكِ إلى الغرفة متجنبًا مواجهة أبي عند المدخل؛ خشيت أن يظن وقوفي في طريقه استخفافًا بكلامه أو تحديًا له، فيزداد حنقًا ويقودنا ذلك إلى نقطة اللاعودة.

حين دخلت، وجدتك تجمعين ملابسك من الخزانة الحديدية إلى حقيبة صغيرة. قلتِ:

- أنا راحلة إلى بيت أهلي، سأترك لكم البيت لعلك تصبح مليونيرا، لم أكن أعرف أن وجودي سبب لشركاتكم الإفلاس؟!

قلت لكِ يومها مواسيًا:

- أبي لم يقصد إهانتك، قال ما قاله وهو غاضب. أنتِ تعرفين أنه رجل طيب، وعلينا تحمّله، خاصة في مثل عمره. أرجوكِ لا تكبّري الموقف أكثر مما يحتمل... ابقي من أجلي، ألا تحبينني؟
- لا أستطيع البقاء هنا. حظي سيئ منذ قبلت الزواج برجل يعيش عالة على غيره.

كانت كلماتك مؤلمة، أيقظت داخلي شعورًا بالنقص. سألت نفسي بدهشة وصدمة: سلوى تعيد تقييم زواجها مني؟! وهي التي كانت تُقسم دائمًا، كلما سألتها لأطمئن على حبها، أن ارتباطنا أجمل قدر، وأنها لو عاد بها الزمن لاختارتني من جديد.

إذا كان الحب لا يُقاس بالوزن ولا بالمقادير، فلماذا إذن قتلتُ ياسر؟! أيمكن أن يكون من أجل الحب ذاته الذي تملّك سلوى ثم تخلّت عنه عند أول خلاف بسيط مع والدي؟ لعلها لم تحبني أصلًا! سأدعها ترحل، لن أجبرها على حياة مع رجل لا تحبه، أما أنا فسيبقى قدري أن أظل وفيًا لها، حاضرةً كانت أم غائبة.

تركتكِ تجمعين أغراضكِ، مستسلمًا لرحيلك. قطعت يومها على نفسي عهدًا ألا أذهب إلى بيت أهلك طلبًا لرضاكِ أو لحل المشكلة. قررت السفر إلى صنعاء بحثًا عن عمل يغيّر واقعي، ما دام الجميع يعدّ المال أثمن من أي شيء آخر، قبل أن أنتهي لاحقًا إلى قناعة مماثلة بعد أن طالت الحرب واشتدت الأزمة.

كنت قد عزمت على السفر أول سبت قادم، لكن ما حدث في نهار الجمعة الأخيرة غيّر خططي. التقيت بأخيكِ، ولم يكن قد مضى على وصوله من صنعاء سوى ساعات. جاء ومعه هوائي استقبال رقمي، أول من يجرؤ على اقتنائه في القرية، وهو ذاته الذي سيكسره لاحقًا بعد انضمامه إلى تنظيم القاعدة. اقتناه بدافع متابعة أحداث غزو العراق عن كثب، وضحّى لأجل ذلك ببقية عامه الدراسي فأوقف قيده في الفصل الجامعي الأخير.

كان الناس ينظرون إلى خالد بريبة: منهم من رآه فاسدًا يفسد الشباب، ومنهم من اعتبر الهوائي وسيلة لاستقبال مئة قناة أغلبها يعرض أفلامًا ماجنة ورقصًا فاحشًا، وآخرون قالوا إنه نبتة شيطانية، لم يكفه أن أغوى مرام وشوّه سمعتها، فإذا به يسعى الآن لتدمير أخلاق القرية. أما والده فكان يواجه تصرفاته ببرود مستفز، وكأن الأمر لا يعنيه.

في ذلك اليوم جاء خطيب الجمعة من قرية مجاورة، وما إن سمع بخبر الهوائي حتى صعد المنبر ليخطب خطبة طازجة عن "مخاطر ما تبثه الهوائيات الرقمية"، محذرًا من الغزو الفكري الذي يسعى الكفار من خلاله لنزع عفة المسلمين. وما أثار غضب الناس أكثر هو ربط الخطيب بين غزو العراق والغزو الإعلامي الذي سهّله خالد، شأنه في ذلك شأن العملاء والخونة الذين سهلوا للتحالف الدولي دخول العراق.

لم يدركوا أن سخط خالد على الحرب كان أضعاف سخطهم، وأن تضامنه مع العراق كلّفه استدانة ثمن الهوائي، وخروجه في أربع مظاهرات أمام

السفارة الأمريكية انتهت بإصابة في كاحله خلال صدامات مع الأمن. ثم إنه قرر تأجيل تخرجه إلى العام المقبل.

التقيت بخالد ذلك اليوم وقلت له ممازحًا:

- أنت تفسد الناس. الهوائي الرقمي سبب حالة غليان واسعة. كفرك سيزاحم على المنبر في الأسابيع القادمة كفر أبو جهل.

رد مجاريًا لسخريتي:

- ولِم تركت سلوى البيت يا فالح، المسكينة تبكي ليل نهار وأنت مشغول بإحصاء الكفرة وترتيب أدوارهم.

أفزع خالد العواطف بداخلي، سلوى تبكي! هذا عكس ما كنت أتخيل من أنها لا تحبني! كم كنت غبيًا حين شككت في حبها لي.

استدرجت خالد للحديث عنكِ أكثر قلت له:

- لم أقل ما يسيء لها. أنت تعرف والدي، دائمًا ما يعلق على موضوع عملي.

رد:

- نعم، لقد فهمت القصة، لكن عليك أن تبحث عن عمل وتستقل بنفسك. أنت لم تُسئ إلى سلوى مباشرة، لكن وضعك الحالي يحرجها. سلوى تحبك، ومن أجل أن تبقى كذلك عليك أن تتحمل وتكدّ لتوفر لها ما تحتاجه. وكما أنها تضحي بكرامتها من أجلك، فعليك أن تضحي بكل ما تستطيع من أجلها.

أخافتني كلمات خالد بقدر ما أبهجتني. أخافني فيها التحذير، وأسعدني أنكِ ما زلتِ تحبينني. راجعتُ أسباب الحيطة، وبحثتُ عن نقاط تلاقي قد تجمع بين الحب والحذر، فلم أجد للحب مرادفًا أصدق من "الأمن". لكن الأسئلة ظلت تدور في داخلي: هل الحب حقًا، كما يُقال، غير قابل للمقايضة ولا للضياع؟ أم أنه سلعة معروضة للبيع، مهددة بالصفقات، قد نخسره كما كسبناه؟ وهل الحب خالد لا يموت، لأن المحب يلتمس لحبيبه الأعذار، أم أن عمره ينتهي حين تتلاشى فرص التضحية المتبادلة؟

كلمات خالد كانت دومًا تغيّر مفاهيمي، أيًّا كانت صيغتها أو مناسبتها. كنت أشعر أن كل ما يقوله يعلو على فرضياتي، فأضعه بعين الاعتبار وأعيد فرز مضامين معتقداتي وفقًا لترشيحاته واهتماماته.

خالد لم يكن شخصًا يضع النقاط على الحروف فقط، بل كان يتبنى الكلمات نفسها؛ رصيده المعرفة ومخزونه التجربة. من يلتقيه لأول مرة يشعر أن كل ما فيه ينجذب نحوه، فيتركه أمام خيار واحد: أن يلحق بما سبقه إليه حتى لا يظل وحيدًا في عزلة.

اليوم الصعب الذي أوجده خالد في القرية أنسى الناس حرب العراق، محوّلًا مزاج التضامن العام إلى سخط جماعي، وهو الجو الذي استغله معمر لتشويه صورته قائلًا:

- العالم مشغول بالاعتكاف والدعاء من أجل العراق، والسفهاء يبحثون عمّا يُشغل الناس.

تحول معمر يومها إلى "خبير" ينذّر من مخاطر ما تبثه الهوائيات الرقمية. لكن حضوره تلاشى تدريجيًا مع وصول خالد إلى التجمع. دخل المكان دون أن يمدّ له أحد يده عدا شخص أو اثنين، وسط دهشة من جرأته على مواجهتهم. حتى إن أحدهم قاطعه ونعته بـ "الديوث". ومع ذلك لم ينجر خالد إلى الاستفزازات، بل استطاع أن يستعيد زمام الموقف، مستفيدًا من معرفته الواسعة بتفاصيل ما يجري في الخليج.

كان يتقن فنّ التخاطب؛ يعرف متى يبتسم، كيف يشد نبرة صوته، إلى أي حد يطيل الصمت، وأي الكلام يقدّم. تحدّث طويلًا عن الحرب، وربط بين الفارق التكنولوجي الذي مكّن التحالف الأمريكي من التفوق، وبين الهوائيات باعتبارها إحدى ثمار تلك التقنية. قال: "العقليات المتخلفة هي التي حرمتنا من التقدم وجعلتنا نتوقع الهزيمة دومًا. ومن يريد هدم قيم المجتمع لا يشتري هوائيًا، بل يترك عقله فارغًا ويعيش أسير الجهل، عندها يتحول المجتمع إلى ركام. لقد جلبتُ الهوائي لتشاهدوا وضوح المؤامرة التي نتعرض لها. وإن لم نواكب العصر ونفهم متطلباته، فسيسهل على غيرنا سحقنا. لن ننتصر على أحد إذا منعنا أغنية، بل إذا استطعنا أن نصنع الطائرة والمدفع".

أُعجب الحاضرون بكلامه، وحين أنهى حديثه وغادر الاجتماع، انجرفتُ خلفه لأسأله: كيف ينجح في إقناع الناس بتلك السهولة؟

أجاب:

- يجب أن تفهم جيدًا كل المعاني التي تُؤطّر حديثك؛ أن تعرف مثلًا ما الفرق بين الاحترام والغرور، بين الحدة واللطافة... أن تميّز بين الصراحة والوقاحة، وبين الكبرياء والتكبّر. عندها فقط سيأتيك القالب الصحيح لحديثك، وسيضمن سلامة مضمونه. وتذكّر: لا بد أن تعرف المتناقضات كلّها، وأن تستخدمها أيضًا عند الحاجة.

كان يومًا رائعًا ذلك الذي قضيته مع خالد؛ بدأ بأن أعاد الاعتبار لحبي لكِ، وانتهى بالحديث عن الشيء نفسه. في تلك الليلة تحدّثنا عنّا معًا، ونصحني بأن أجيء لمراضاتك وأن أكون جادًّا في البحث عن عمل. لم أخفِ عنه شكي في حبكِ لي، فقال بلهجته الحاسمة:

- من يحب لا يشك، ولو عرفت سلوى أنك تشك في حبها لك لأصابها ما أصابك من خذلان. هي تحبك أكثر مما تحبها وهذه المشاكل تحصل في الغالب.
- أنت تعرف الوضع جيدًا. هناك بطالة تعصف بالبلد، والظروف الاقتصادية سيئة. أنا فقط أنتظر أن تأتي فرصة تناسبني، وعندما أنخرط في الوظيفة العامة لن أتوقف حتى أصل؛ سأصير وزيرًا ثم زعيمًا. سأبهرك، فقط دع الفرصة تأتي وسأثبت لك.

رد عليّ بكلام أعاد التوازن إلى مفاهيمي من جديد:

- الفرص لا تصنع العظماء، إنها فقط ترتّب المواعيد. إياك أن تمتهن

الانتظار؛ ستموت وأنت ما زلت تتقاضى أجر عامل الصدفة البسيط. لا يمكن لموقف أن يشيدك، ولا للحظة عابرة أن تصنع منك ما تتمناه. هل تؤمن بالتراكمات؟ بحصالة النجاح التي عليك أن تملأها قرشًا قرشًا لتبتاع المجد؟ بطريق الألف ميل الذي يبدأ بخطوة؟ صدقني: العثور على الصفر الذي تنطلق منه أصعب من الوصول إلى الرقم الذي تطمح إليه، مهما كان بعيدًا أو عظيمًا.

في تلك الليلة، كانت مرام قد كتبت رسالة وأرسلتها إلى خالد مع أخيها سمير ذي العشر سنوات، بعدما وعدته بأربع قطع حلوى ألا يخبر أحدًا. تردد خالد طويلًا قبل أن يفتحها، وهمس وهو يقلب الورقة بحيرة:

- لماذا أقرأ كلامًا لست طرفًا فيه؟ هذه الفتاة مجنونة، ولا غرابة إن انفجرت يومًا من فرط الوهم.

استفزني قوله فقلت:

- أنت رجل لا يستحق التقدير! لو أن فتاة تعلقت بي بكل هذا القدر، ما كنت لأتركها أو أستخفّ بمشاعرها. من تظن نفسك؟

ابتسم ببرود وقال:

- أنا شخص ذو طموح عادي. لن أرتبط إلا بمن تناسبني، ثم إنني لا أفكر أصلًا في هذا الموضوع الآن. دعنا نرَ ما كتبت صديقة زوجتك.

في مطلع الورقة كُتبت عبارة بخط أسود غير منتظم: "هذا آخر ما سأكتب إليك علنًا."

ثم جاء صدر الرسالة على نحوٍ بدا كأنه اعتراف شعري، بلا توقيع ولا أمنيات:

"لا توكل إليّ مهمة مطاردة مشاعرك الفارّة؛ لقد أرهقني دور شرطية الحب. الحب يا عزيزي لا يُساق مُصفّدًا، إن سر جماله في حريته وفي توقه للتحليق داخل القلوب. هل رأيت حبًّا في زنزانة؟ هل سمعت عن حب أُفرج عنه وأعيد إليه اعتباره؟ ما من قوانين تحكم المشاعر، ولا سلطة تلاحق القلوب. ولستَ مضطرًا للفشل في إثبات ما لا تؤمن به، فالأيام وحدها كفيلة بتجريدك من أقنعتك، لتبقى مشاعرك واضحة أمام كل من حولك."

أنهى قراءة الرسالة بضحكة ثم قال:

- لماذا عليّ مواجهة المجانين أينما كنت، من أخبر هذه المعتوهة أن عليها ملاحقتي؟!

قلت له:

- هي تحاول استعطافك ليس إلّا.
- – هذا ليس استعطافًا، بل أقرب إلى التهديد. ربما تكون زوجتك قد أسرّت لها، بطريقة أو بأخرى، أنني أحمل مشاعر تجاهها، وها هي الآن تحاول إخافتي.

قلت له:

- لماذا لم توقع على الرسالة؟!

قال ساخرا:

- لعلها لم تتوفق إلّا في هذا. حتى لا يصبح اسمها شاهدا على حماقتها. انظر إلى هذه العبارة: "هذا آخر ما سأكتب إليك علنًا". مسكينة! كم يا ترى باحت أوراقها بسرّها؟ يا لعظمة المشاعر حين تفيض بالمذكرات! تدري يا حامد، أنا لا ألومها بقدر ما أشفق عليها؛ لذلك أتحاشى ذكرها، حتى لا ينهار يقينها. فحبّ بهذا العنفوان إن سقط لن ينهض مجددًا. مشكلتها أنها بلا خيالٍ خاص؛ تعيش فقط على ما يصنعه لها الآخرون. تحبّ من وحي الحكايات، ولا تترك للواقع منفذًا. وإن التفتت إليه، فإنها لا تكتفي بالعيش فيه، بل تنكره وتنتقم من نفسها بسببه.

قلت:

- وما الحل؟

- سنتناقش أنا وأنت وسلوى. سأجعل سلوى تذمني عندها. لا يمكن لنا صعقها بحقيقة أني لا أحبها.

- وهل في قلبك واحدة غيرها؟

- أنا معجبٌ بطالبة جامعية تدرس الأدب العربي وتكتب الشعر.

عرفتها حين ألقت قصيدة في الأسبوع الثقافي؛ شعرت أن كل بيت ألّفته مهيأ لأن أسكنه، طوقتني بحرارة قريحتها وردمتني ببرودة أنوثتها. ربما لو عرفتها قبل أن أعرف موهبتها لقلت: لا ينقصها إلا أن تكون شاعرة. تتودد إليك جميع تصرفاتها وكأن كل شيء فيها شعريّ. لعلها المرأة التي تخفي تحتها طاقة مدينة وسكون ليلة بحرية على شاطئ يقيم فيه القمر. تجمع المتناقضات بأسلوب لا ينسجم إلا مع من أتقن تفاصيل اللغة. ليست ما أتمنى وحسب، بل كل ما تمنيت. تمد ثورتي بالخطاب، ليصبح لطموحاتي إمكانية، ولمشاريعي مشروعية. حين أقرأ قصائدها الوطنية لا أتعرف على الوطن من جديد، بل ألتقي بوطن مخيلتي الذي حاولت دائمًا أن أُعرِّف الآخرين عليه. وحين أسمع كتاباتها الغزلية أقول في نفسي: هناك من شرح دروسي بإتقان.

قلت له وأنا مشدوه:

- عرفت الآن لِمَ اخترتها بدلًا من مرام. أحلامك الثورية تختار لك حتى عشيقاتك.

أجابني ببرودٍ واثق:

- هي خيار بلا سؤال، صيغته خلقتها القصيدة والأنوثة معًا، وجد هكذا لسببٍ لا أستطيع إدراكه، كما هي عادة الهواجس والفطرة.

- وماذا عن مشاعرها تجاهك؟ هل تبادلك الحب نفسه؟

قال بنبرة خائفة:

- لم أسألها. علاقتي بها كعلاقة المعجب بفنانته المفضّلة، لا أجرؤ على مفاتحتها. ماذا لو لم يكن في قلبها شيء خاص تجاهي؟
- إذن أنت تريد أن تعيش بالخيال! لا تختلف عن مرام في شيء.
- لا تشابه بيننا. مرام تحبني لأنها تسمع أني رجل جيّد، ولعلها تسمع أني أحبها. أما ريناد، فلم تسمع شيئًا. سأجعلها ترى بعينيها وأثبت لها أني أحبها.
- صدقت. مرام تحبك لأنها تسمع عنك، وأنت تحب ريناد لأنك تسمعها. خذها مني: مكيالك يُكال لك به؛ أنت تُشبه مرام أكثر مما تتصور.
- لست أحمق يا حامد. صحيح أني لم أفاتحها، وصورة مشاعرها ما زالت ضبابية، لكن ثمة لغة أخرى أفهمها: لغة عينيها التي تقول لي سرًّا يصغي إليه قلبي. لم أفاتحها ليس فقط لهالة خوفي، بل لأمنحها وقتًا كافيًا لتعرفني، ولتنضج ثقتها بي. سأشتهيها أكثر حين تنضج مشاعرها على مهل، ثم ألتهمها.
- أنت تعاملها كطريدة.

قال بضحكة ماكرة وقد شدت شفته الغليظة من جانب واحد:

- النساء يختلفن بحسب قربهن من التأمل. هناك من لا يصلح معها إلا الملاحقة، وهناك من يكفيها أن تراك واقفًا. ريناد لم تكن يومًا طريدة، ولعلها تهزأ بالذين يركضون خلف النساء بتلك الهستيريا. حتى حين ألتهمها، فلن آكلها على عجل كمن يخشى أن يسرق رفيقه لقمة، بل سأمضغها ببطء من يخاف أن تُفقده السرعة طعم وليمةٍ لا تتكرر.
- إذًا أنت تراهن على الانتظار.

أومأ برأسه مؤكدًا. وتركتُه يومها على وعد أن نذهب معًا لنعيدك إلى البيت.

❊ ❊ ❊

٩

تلك كانت تفاصيل يوميات وطنٍ دفعني فيما بعد لأن أقتات من وجعه. فما ذنبي إن لم يكن إفرازاته إلا صديد الحرب، وإن لم يكن فيه طاهر سوى ثوب المعاناة المتجدد حتى يصير كفنًا؟ هل كان الوطن يهيئ نفسه بهذا الوضوح ليكون في القعر؟

- بل نحن من دفعناه إلى الهاوية، فالأوطان لا تتحرك إلّا بإرادة أبنائها.

قال السجين أحمد بصوتٍ بارد اكتسب حكمةً من قسوة السجن.

- ولماذا يدفع الشعب بوطنه إلى الهاوية؟

أجابني كمن يشعر بالذنب:

- لأنهم لا يعرفون الامتنان لأوطانهم، ويدينون لمن يمدّهم بعقائده المستوردة. يُجرَّدون من فطرتهم، فيمدّهم الغريب بما يراه مناسبًا: تارةً عقيدة طائفية، وتارةً مناطقية، وتارةً تبعية كاملة. هكذا تزحزح الشعوب أوطانها شيئًا فشيئًا حتى تسقطها. وحين تصل معها إلى الهاوية تتذكر أنها كانت واقفة عليها منذ اللحظة التي مدت فيها يدها للخارج.

- أنت تبالغ. ألا يوجد شرفاء في البلد؟

- وأين الشرفاء في وطنٍ يكون الحصول فيه على قنبلة أسهل من

الحصول على رغيف خبز؟ حتى أسلحتهم التي يقتتلون بها ليست من صنع أيديهم. الشرفاء يموتون في بيوتهم بأسلحة الدفع المسبق؛ إما قهرًا أو جوعًا. حتى أنصاف الشرفاء أمثالي وأمثالك، ممن ذهبوا للحرب أو حملوا شجاعة بلا جدوى، فثمن نهايتهم أرخص من ثمن بقائهم. الشعوب هي من تصنع أصنامها. لكن هناك فارق بين من يصنع إلهه من تمر ليأكله إذا جاع، وبين من يشيد إلهه من بشر، فيتقرب إليه بدمه كلما عطش ربه من فرط الطغيان.

يا حامد، لا تصدق كل من يحاول أن يبتاع الوطنية بدماء غيره، ولا كل من فوّت فرصة الحياة من أجل فروض الحروب والموت؛ فجميعهم كاذبون ووقحون أيضًا. هذا ليس قولي وحدي، بل هو لسان عربي موحّد، يسبّ حكامه ومسؤوليه بصيغة الجمع، يتحدث عنهم كأنهم أشباح لا يعرفهم، وهو في الحقيقة يعرف ما يفعلون. ثم يبرر بقاءهم قائلاً: "فُرضوا علينا فرضًا من قِبَل دول عظمى، لها مصلحة في بقائنا هكذا."

أرد على قوله باستفسار:

- أهذا الدم نادر ليصبح عملة العالم الصعبة؟ أتعرف يا أحمد، لا تتماشى أفكاري كثيرًا مع فروض نظرية المؤامرة، فهي شماعة قديمة لم تمل أقنعة عجزنا من التأرجح عليها. الأمم الأخرى أعادت ترتيب بيوتها بما تراه ضروريًا، ونحن ما زلنا نلقي أثقال حماقاتنا عليهم.

١٠

مرّ يومان على لقائي بخالد، وأسبوع منذ تركتِ البيت. أيام اختبرت صبري واشتياقي، ولم تترك لي علامات معتبرة. لم أكن أعلم أنها لم تكن سوى بروفة صغيرة لفراق أعظم، ممتد بلا نهاية واضحة، فراق لا يملك الزمن الكفاءة على تجاوزه حتى لو استعان بأرحام اصطناعية.

قصدت خالدًا، فهو كالعادة منعزل في غرفته المنفردة فوق السطح. الوصول إليها مغامرة في ذاته: سلّم خشبي يصعد من سطح اصطبل الأبقار المجاور، الذي يُصعد إلى سطحه بقفزة تصل إلى متر ونصف من سطح مسجد القرية. كانت الطريق إليه ممتعة وخطرة ومعقدة، تشبه مجالسته تمامًا.

اجتزت متاهة خالد أخيرا، لأصل إلى غرفته المبنية من الطوب الأحمر ولها نافذتين صغيرتين إطارهما خشبي وتبدوان من الداخل وكأنهما لوحتان: إحداهما تؤطر من الأسفل الفروع العلوية لشجرة المشمش المسنودة على جبل الناعور؛ أما القسم العلوي للنافذة فيتقلب وفقا لمزاج المناخ الجبلي الحاد بين أن يكون سماءً صافية، وبين أن يصبح سحابة بيضاء أو داكنة؛ أما النافذة الأخرى فيتراءى لكل من وقف في منتصف الغرفة وادٍ سحيق لا يظهر قعره لكثافة شجر البن المعمم بالغمام والملازم كعادته للمرتفعات الغربية لريف صنعاء.

دخلت الغرفة الضيقة، لأجده بملابسه الداخلية، وهو منكب على كتاب جاء به من صنعاء. كانت غرفة خالد من الداخل تخالف توقعات من يطالعها من الخارج بأنها صالحة لأن تكون صومعة للتعبد والتأمل بلا أثاث ولا متاع. كانت فوضوية بكراكيب ومقتنيات، بلا ترتيب ولا مكان لجلوس الزوار إلا بملازمة خالد على فراش النوم المحاط بالكتب، والمذكرات، والأوراق، ودفاتر الملاحظات، وبقايا الصحف، ومجلات ممزقة الأغلفة، من كثرة تداولها بين رفاقه. وفي الزاوية السفلية للغرفة كرتونٌ محشوٌّ بأشرطة كاسيت لمطربين عرب يكفي أن تستمع إليها لتتيقّن أن الجميع يقفون على المنحدر ذاته.

قد يمضي وقت قبل مفاتحة خالد بموضوع زيارتي، وقت مخصص لقراءة ما يكتبه. يكفي أن ألتقط دفترًا من بين تلك الدفاتر المبعثرة، لأجد فيه نصوصًا بعضها مكتمل وبعضها الآخر ينتظر. هناك نصوص كُتبت لمناسبات، وأخرى مجرد هواجس تحاول أن تصير أسبابًا لمناسبات قادمة.

كتاباته تعجبني، وسردياته تشدني. أجد نفسي بين تفاصيل أسطره العاجزة عن أن تصبح كتابًا كبيرًا، لأنها تخرجني من مسافات الزمن الصغيرة التي أعيشها إلى مساحات الذاكرة، ثم تستنزفني هناك على مرأى من الحاضر الساكن كطفلٍ حائرٍ لا يعبر عن ألمه ولا يبدو أيضًا أنه بصحة جيدة. أراها، بطريقة يصعب علي وصفها، مرآةً عابرة تعكس حقيقة الأشياء المجرّدة، ثم تتحول إلى مرآة تترجم ملَلَ من أتعبه سردُ لغةٍ لم يعد يحبها كما كان.

أقرأ في وصلاته الإملائية عن غرابتي، عن وحدتي المريعة، وعن انفصالاتي الحادّة. أعرف من خلال مضامين نصوصه حال نفسي المغتربة خلف الشتات، وأعيد فهم أسباب تحورات سلوكياتي الفطرية على مر هذا العمر الذي لم يعد يشبه ما كنت أعيشه. أتُراه كان يفكر بي حين شرع بكتاباته، أم أن الأمة المقسمة توحّدها المشاعر وتفرقها التعبيرات؟ كما قال حين مرّرت إليه سؤالي.

إذًا، هذه هي الغرفة الفوضوية وصومعة الناسك. لا جديد فيها سوى شيئين: أعقاب سجائر، بعضها معطوب من المنتصف، يدسّها خالد تحت بساط الغرفة كلما شعر بحركة غريبة خشية أن يكون الزائر هو العم نجيب. كان يخنق أدخنته ويبقي على تمرّده يكبر، يخبئ شذوذه الصغير تحت وسادته فيتعاظم في مناماته، يكبت غرائزه فتتهيأ للانفجار لاحقًا في ميادين التجمعات العامة والأماكن المكتظة. والشيء الثاني هو أثاث جديد زاد من عشوائية المكان؛ دفاتر قصائد ريناد، كلها مفتوحة ومعدة للقراءة كلما اشتاق خالد من جديد إلى ذلك الشعور غير المفهوم كما وصفه يومًا.

طاقة المكان الغريبة، والعشوائية المزعجة، والارتياح فيه، والتزاوج غير الشرعي لكتابات خالد مع قصائد ريناد؛ وسط هذه الفوضى بدا الديكور الافتراضي لمستقبل مضطرب وغير مريح. لم أفهمه إلا بعد انضمامه إلى صفوف تنظيم القاعدة.

أخبرته يومها عن رغبتي في عودتكِ، وأكدت له أنني سأكون جادًا في البحث

عن عمل، فطلب مني أن أحضر مساءً، وسيمهد هو لحضوري.

عدت إلى أبي يومها أخبره عن إمكانية عودتكِ مساءً، فقال بلهجة تكتنفها الحكمة والحزم:

- يا بني، إياك أن تظن أني أقف ضد راحتك أو أعيق سعادتك. لن أمانع أبدًا في عودة زوجتك إلى بيتها، لكن لا تجعلني أضطر في المرة القادمة إلى اتخاذ قرار طردك من البيت.

ذهبت مساءً إلى بيتكم. خالد كان قد مهد الأمر مع والدكِ، وما كان عليّ إلا الاستماع إلى المزيد من النصائح. ثم دعاكِ أبوكِ لتتجهزي حتى تعودي معي.

❊ ❊ ❊

١١

عدنا معًا.

ليلتها بدا لي الحديث إليكِ محاطًا بأسوار مرتفعة وسياجات منيعة. عرفت لحظتها أنني في مخاض عاطفي حاسم أفقدني الكلمات، وخرجت منه أبكمًا بلا مزايدات غزلية.

بالكثير من الصمت استقبلتكِ تلك الليلة. لم أشعل لكِ الشموع، ولم أرتدِ ربطة عنق مزركشة، لم أُعد طاولة ولا جهّزت وردة. لم أسمح للمكان أن يحظى بشيء منكِ، حتى ولو بأن يحتضن مراسيمكِ. أردتُ أن تكون شكليات رجوعكِ محصورة في عينيّ فقط؛ لا تبريرات، ولا وعود، ولا عهود. صمتٌ غامض يحتويكِ فترتجفين وضوحًا.

ليتَكِ لم تبادري بالكلام، كيلا أُضطر لإخماد ثورة حيائكِ من طغيان صمتي بكلمة مشوّهة لا تعترف بها القواميس. أومأتُ لكِ بيدي هامسًا: "اشششش..."، فجعلتني تلك المفردة المبهمة سفّاحًا لا تناصر ديكتاتوريته لغة ولا هتافات.

كنتِ في أروع حال، بينما كنتُ أنا أوزع غنائم جمالكِ، يشبع فيَّ التطفل وتتمادى النزعات حتى الرغبة في التوغل فيكِ. في تلك العشية كنتِ أنتِ القادمة. فكيف ستكون الليلة التي أكون أنا فيها النزيل؟ ها قد نضج حبنا حتى

بتنا نتبادل الأدوار، كأن لكلينا الرغبة ذاتها في احتراف الاشتياق. تعودين نحوي مثقلة بغموضكِ، فتضع عيناي أثرهما على تفاصيلكِ. يشتهيكِ فراغ فراقكِ، فأتحول إلى مقاعد محجوزة لكِ، عابرة ذهبتِ ومحمولة تعودين. فما بال رحيلي الغامض عنكِ وعودتي السطحية إليكِ؟ أتحاولين اكتشافي من جديد، أم سأظل منبهرًا بكِ وحيدًا في كل مرة، سواء كنتُ النادل أو الضيف؟

في صبيحة اليوم التالي استيقظتُ باكرًا لأتأكد أن ضوءًا لم يسرقكِ، وأن شعاعًا لم يسحبكِ إليه. وجدتكِ غارقة في النوم، ما زلتِ غافلة عن جمالكِ من لصوص الاندهاشات الصامتة. كنتُ جرسًا يقرع بضبط محكم، مستعدًا للشروع في خطة السطو عليكِ من جديد.

قررتُ يومها أن أرتب لكِ بداية جديدة لها عبق خاص، عسى أن تذكّركِ الروائح بأنكِ تقفين على خط الانطلاق كلما شعرتِ أنها النهاية. خرجتُ فجرًا لأعود بكيس مليء بزهور الفل التي يجلبها باعة الزهور من السهل التهامي إلى صنعاء. حشوتُ أعواد الريحان بين أزهار الفل النائمة، ثم نثرتُها على مخدعكِ. أيقظكِ عبق الاشتياق المختار. ها أنتِ تفيقين مع أحلامكِ لأول مرة، غارقة وسط بركة بيضاء، تتبادلين معها النظرات المشوشة كأنكما ستنسحبان معًا إلى باطن الأرض أو تعتلين بساطكِ الأبيض نحو السماء. بابتسامة كسولة كشفتِ لي عن خمولكِ المحبب، فاندفعتُ أحملكِ بين ذراعيّ، خشية أن يخلّصكِ الوقوف من إرهاقكِ الصباحي المسترسل في أعماق الدلال الأنثوي الجذاب.

وقفتُ أمام النافذة وأنتِ بين ذراعي. رفعتُ الستار، فسرق النسيم من رائحتكِ ما يجعله هو الآخر متأكدًا أن بدايته القادمة ستكون مميزة.

رحتُ أنظر للفناء كما لو أنه قد شاخ كثيرًا، بتقسيمات جديدة لم أنتبه لها من قبل. لم أكن أدرك أن شجرة اللوز بعيدة إلى هذا الحد عن شجرة الخوخ، وأن شجرتي الرمان تقفان بينهما بحياد. للمرة الأولى بدت لي المدرجات الزراعية بذلك التناسق الهندسي البديع، تصعد من الأسفل إلى القمة بالرتابة نفسها على الجبل العجوز ذاته، حيث تبدو أصغر منه سنًّا، يحتضنها بعطف كما أحتضنكِ أنا.

ربما لأن الشوق يستوطن الذاكرة، فينسج هناك تخيلات لا حصر لها عن نهايته؛ بعضها يتحول إلى حقيقة، وأخرى تضل طريقها حتى تموت فتُسمى أوهامًا. لذلك فإن عاقبة حياة المشتاقين إما الجنون، وإما أن يصبحوا أشخاصًا يختلط في أذهانهم الخيال بالواقع، فتُنتج كيمياء التصورات الأشياء كما لو أنها خُلقت من العدم.

صحيح أن عودتكِ إليّ جعلتني بلا اشتياق، لكني صرتُ شخصًا دقيق الملاحظة، يرى تفاصيل ما حوله ويعجب بها، يبكي لأتفه الأسباب، يحن كثيرًا، ويتأثر أكثر من أي وقت مضى. أنا الآن مدين لذاكرتي وذكرياتي. لذلك أكتب: لأُسدد للماضي ثمن لحظاته الجميلة، وأعاقب نفسي على اللحظات التي لم أجعلها جميلة، وأدين ذاتي باعترافاتي وأجرّمها بأسئلتي، حتى تشهد الأوراق أن استفهاماتي تنضم بدورها إلى أحكام عقوباتي، وكيلا ينجرف

القلم إلى التبريرات ما دامت هناك مقومات غير مستغلة للسعادة.

اليوم أفهم شعور سبعيني يفتش في ألبوم صور عمره خمسون عامًا، لا يدري هل هو سعيد بماضيه أم مغموم بحاضره أم خائف من مستقبله. هذا هو الشعور الذي يلازمه منذ أن فقد أصدقاء كثيرين واكتفى بذكريات أكثر. يتمتم وهو يستسلم أمام طغيان شعره الأبيض، ووهن ساقيه، وارتجاف يديه: لقد مضى الكثير ولم يبقَ إلا القليل. ثم يعاتب نفسه: لماذا لم نحسن العيش كما يجب؟ لماذا تعاملنا مع عبارة "العمر مرة واحدة" وكأنها بلا معنى، نبرر بها سوء سلوكنا ونزواتنا الطائشة فقط؟ ثم يربط صوره الفوتوغرافية بصور أبنائه وأحفاده، يحاول أن يزرع في أذهانهم، المبهورة بأعمارها، عمق العبارة نفسها. لكنهم يبسطونها كما فهمها هو في شبابه، ثم يواجهون حكمته بجبر خاطر عفوي قائلين: "نعم، العمر مرة واحدة"، قبل أن ينصرفوا إلى أحاديث اهتماماتهم كأن الزمن لن يطالهم.

الوقت لم يمضِ كما يجب. أعوام مرّت ونحن نعيش على اليأس والاعتياد معًا. يتسرب البؤس من شقوق أعمارنا، ويحيط بنا الشقاء من كل جانب. نطفح فوق وسخ معاناتنا، ونتعامل مع تفاصيل حياتنا كواجبات صعبة، ننجز الأيام كأنها تكاليف إلزامية، قبل أن ندرك أن أثمن ما خسرناه هو أعمارنا.

❊ ❊ ❊

١٢

قد لا تصدقين أن أخاكِ خالد أحب بكل ذلك الضعف والقوة معًا. الشاب ذو الصورة العنيدة في المخيلة، الملامح المحددة، والتصرفات المحسوبة على الكِبر، سلّم المطرقة والمسمار الأخير لريناد كي تكمل صنع نعش الرحيل إلى المجهول، وانتظر بائسًا بلا كفن. قصة بقيت طي الكتمان. لن تجدي مبررًا تفهمين به تعنّت خالد القديم عن القبول بمرام، ولا عذرًا مقنعًا لانضمامه إلى القاعدة، إلا حين يصلكِ ما أكتبه الآن.

بعد عودة خالد إلى صنعاء لإكمال دراسته، استيقظ أخيرًا من سباته العاطفي. وقد تزامنت تلك الفترة مع ذهابي أنا أيضًا إلى صنعاء للبحث عن عمل؛ مرحلة عانيت فيها كثيرًا من التخبط بسبب تنقلي بين مهن كنت أحاول إتقان إحداها، لكنني ما إن أقترب من ذلك حتى أتركها لألتحق بأخرى، إما لركود الأولى أو لانطفاء حماسي لها. عملتُ في محلات تجارية، ثم أجيرًا عند معلمين حرفيين، قبل أن أصير مندوبًا في فرزة باصات النقل الداخلي. كنت أقضي النهار كله مناديًا بأسماء المحطات بصوت مرتفع ونبرة مميزة. شهرٌ واحد في تلك الوظيفة البسيطة- التي لا تحتاج إلى مؤهل ولا خبرة- كان كافيًا ليمنحني تجربة ثمينة؛ خبرتُ الناس، ورأيت وجوه المارة والركاب عن قرب، وحفظتُ إشارات تعابيرهم.

الركاب من طبقات شتى وأعمار متباينة، رجال ونساء، يوحدهم الطريق ويفرقهم المقصد. بعضهم غاضب من روتين عمله، وآخر يتأمل نتائج فحوصاته الطبية، طالب يراجع دروسه، سيدة تلهو بالهاتف مع صديقتها، وقروي متردد يسأل عن أجرة النقل خوفًا من أن يفضحه سُمرة جلده الشمسية فيتضاعف المبلغ المطلوب منه. كنت أرى من يلبس ربطة عنق بجانب آخر يشدّ على ربطة ضجر، من صقل حذاءه صباحًا ومن يمشي حافيًا ليخفف عن نفسه الحمل. وجوه ملمّعة وأخرى عالقة بملامح الأمس.

في تلك الحافلات المزدحمة، عايشتُ اختناق المدن وضيق شوارعها، ورأيت الناس يموتون تحت أعباء مختلفة: المرض، الغلاء، التضخم، البطالة، والحرب. كل ذلك كان موضوعًا يوميًا للشكوى والسباب الموجَّه إلى المسؤولين. بالنسبة لشخص قروي مثلي، قليل الاحتكاك بالناس ولا يجيد قراءة مشاعرهم، كانت وظيفة المندوب أكثر من مجرد عمل مؤقت؛ كانت مقعدًا مناسبًا لفهم البشر. خرجت منها بمال قليل، لكن بوعي أكبر وقناعة أعمق: أن من يركب السيارات الفارهة قد يضطر يومًا إلى ركوب باصات الأجرة مثل باقي الشعب.

ومع الأيام بدت لي فكرة التأقلم مع الوطن، في ظل تراكم المعاناة وفي ظل ضريبتين: واحدة أدفعها من عَرَقي، وأخرى من عُمري، مجرد وهم خطير. كنتُ قد تجاوزت مراحل الصبر جميعها حتى بلغت حكمة شيخ رسم الزمن تجاعيدها على وجهه. صرت أشعر أن الحكمة التي يفرضها علينا الوطن هي

التصالح مع الرحيل، وأن الغضب ينبغي أن يتجه إلى الذات. فالحياة جليلة، لكنها لا تستحق أن تُترك فريسة سهلة للأسلحة. غير أن اكتمال الحياة هو ما يبرر الدفاع عنها، أما حين تنقص أركانها، فإن كل شيء يصبح عرضة للإقصاء، حتى العمر نفسه. "البقاء للأقوى"، أليس هذا ما يجري؟ تشريع معلن يرفض الضعف أيًا كان صاحبه؟ ولو أنني خرجت من السجن وواجهت تلك الظروف المعيشية نفسها، لربما انتحرت وأنا أكثر ما أكون رضا وتصالحًا مع الموت، تحت رعاية قانون جائر يربطنا بأكثر المواطن غرابة، وأقربها إلينا في آن واحد.

وقتها كان عمار في صنعاء أيضًا، جمعتني به أكثر من مصادفة. في البداية كان كل واحد منا ما يزال يحمل آثار شجار الشتاء الماضي، لكن مع مرور المناسبات بدا كما لو أن كلانا يتعافى بطريقته الخاصة.

في إحدى المرات لمحته جالسًا على كرسي حديدي في مقهى قريب من محطة سيارات الريف، يحتسي فنجان شاي. اقتربت وفتحت معه الحديث بسؤال عن حاله، ليجيبني باقتضاب:

- الحمد لله.
- يبدو أنك ماتزال حاقدًا عليّ! أخوك معمر هو من استفزني يومها. أنا آسف جدًا على ما حصل.
- وما دخلي أنا بمعمر! إن كان بينكما شيء فلتصفّيه معه.

- كل ما كان بيننا هو سوء تفاهم. أنت تعلم أن معمر هو من استفزني وتلفظ عليَّ وعلى زوجتي بكلمات جارحة.
- لست معنيًا بتصرفات أحد. تستطيع أن تجلس وتطلب لك الشاي.

قال عمار كلماته تلك في محاولة لإنهاء الحديث في هذا الشأن؛ فهو لم يكن مستعدًا لطيّ صفحة ما حدث. لكنني جلسْتُ أمامه متحملًا نظراته التي تحول اقتلاعي من مكاني، محاولًا توضيح ما حدث بشكل أدق؛ فأنا منذ مجيئه إلى البيت ليتحداني وأنا أشعر بتأنيب ضمير.

قلت له وأنا أتصنع الامتعاض:

- قليل الأدب ذاك جعل سيرة زوجتي على كل لسان. لو كان غيره لقتلته.
- ولماذا لم تقتله مثلما قتلت شرف أخته؟ راجع كلماتك، معمر ليس لعبة بيدك.
- لا أقصد ذلك يا عمار، أنت تفهم ما أقصده. لم يكن لي دخل في حكاية مرام وخالد. ربما زوجتي حدثتها عن أخلاقه، ثم أكمل قلب مرام ما كان ناقصًا في قلبها.
- هل تريد القول إن مرام هي من تحب خالد من طرف واحد؟ وأن زوجتك ليست وسيطًا كما يُشاع؟
- نعم. خالد لا يحمل لها مشاعر خاصة، لكنها تظن أنه يحبها. ربما

أساءت فهم سلوى أو أن سلوى لم تُحسن التوضيح. كان عليك أن تسأل مرام مباشرة.

- أتجنب ذلك حتى لا أحرجها. لكنك تفاجئني الآن، فأن تحب مرام من طرف واحد أصعب من أن يكونا متبادلين.
- حاولت أكثر من مرة أوضح لك لكنك كنت ترفض الاستماع.
- طيب وما الحل؟
- الحل أن تجد وسيلة لإقناع مرام بنسيان خالد.
- سيعين الله. وماذا عن خالد؟
- سنتحدث عنه لاحقًا. ماذا عنك أنت؟ هل صحيح أنك تعاقدت مع وزارة الكهرباء؟
- نعم، أعمل الآن محصل فواتير.

في تلك اللحظة انقطع التيار الكهربائي عن المقهى، فانهالت الشتائم على وزارة الكهرباء. ضحكتُ لألفت نظر عمار إليهم وكأنه المعني بكلامهم. قبض كفيه وأسندهما على الطاولة الخشبية، وقال:

- مشكلة هذا الشعب أنه لا يجيد غير التذمر.
- هل أزعجتك شتائمهم؟
- ولماذا أنزعج؟ هل أنا وزير الكهرباء؟! أنا مثلهم. ما يغيظني أننا نفتقد الجرأة لفعل أي شيء حقيقي يصنع فارقًا.

شغّل عامل المقهى مولدًا صغيرًا مربوطًا بسلسلة إلى باب المقهى، وانتشرت أصوات المولدات في الشارع مع روائح عوادمها، فتحوّل الضجيج إلى مشهد بلا نهاية. حينها صار الحديث مع عمار أكثر صعوبة، خصوصًا في مقهى صغير لا يضم سوى ثماني طاولات، أربع منها في الخارج.

أعاد عمار السؤال: ماذا عن خالد؟

- خالد غارق في عشق ريناد.
- ماذا؟ لم أسمعك، خالد يعشق من؟
- خاااااالد يحب رينااااااااااد.
- من ريناد؟
- طالبة جامعية أكملت دراستها السنة الماضية فيما عاد خالد هذا العام للدراسة لأنه كان قد أوقف قيد سجله الجامعي.
- أعرف ذلك. المهم وهل تقدم لها بشكل رسمي؟
- لا، ويبدو أنه لن يتقدم.
- ولماذا؟ لعلها لا تحبه!
- على العكس ريناد تحب خالد مثلما يحبها، وهناك توافق كبير بينهما، ولكن والدها يعمل جزارًا. هذا ما عرفته من خالد عندما التقيته الأسبوع الماضي. قال إنه عرف هذا مؤخرا حين صارحته ريناد.

- مسكين خالد، وكيف سيتصرف؟
- سيتناساها إلى أن ينساها. هو حاليا يحاول ألا يستيقظ على الواقع الجديد. قال إنه يفكر بإقناع ريناد بالهرب معه. أصبح شخصًا حاد الطباع على عكس ما كان عليه سابقا، أصبح يبحث في العلوم الشرعية عن دلائل للمساواة بين الناس.
- سمعت أنه كان قد بدأ بالاطلاع على العلوم الدينية عقب احتلال العراق.
- نعم، كان قد جعل العامل المشترك لكل الانتكاسات التي نعيشها على المستويين الفردي والأُممي في البعد عن مضامين ودلالات الإسلام. حدثته عن صعوبة أن يقنع المجتمع بضرورة نبذ الطبقية المجتمعية ليرضى هذا المجتمع عن حبه لريناد. رد: عليهم ترك التمييز الطبقي من أجلهم هم أما أنا فلن أتخلى عن ريناد. ثم أضاف: لماذا يتعاملون مع الدين على أنه مجموعة من الطقوس فقط؟ أليست المساواة جوهرا في الدين؟
- مسكين خالد، لم أكن أظنه بهذا السوء!
- المصيبة أنه لا يُقدر الموقف. أنت تعرفه، عنيد ويعتقد أن أمر ريناد محسوم سلفا وأن سر الظفر بها يتعلق بصموده فقط.
- أظن أن ريناد لا تحبه! ربما هي تبحث عن ذريعة لكيلا يتقدم لها.

- جال في خاطري هذا الاحتمال، فدفعني بعد لقائي بخالد إلى البحث عن ريناد، حتى استطعت أن ألتقي بها على انفراد في إحدى المكتبات التي ترتادها بشكل شبه يومي. بعد أن عرّفتها بنفسي، فاجأني موقفها من حب خالد. أتصدّق أنها تعتبر تعلق خالد بها انتصارًا بحد ذاته، وأن انكشاف غموضه إنجاز مهم؟ لم يعد يعنيها مصير حبهما بعد الآن. كتبت بخط يدها على غلاف كتاب أهدتني إياه ما يلي:

"في كل مرة كان يبدو وكأنه لا غرور في عينيه، ولا تواضع في مشيته، نصف بائس من الكبرياء، أو شبيه غير مكتمل الصفات. إنه الشخص الذي تهزم خطواته نظراته لولا أن العكس كان يحدث غالبا. من الآن لم تعد تعنيني حروب أعضائه، ما يهمني هو أنه ما عاد يستطيع أن يكون غامضًا لمدة تفوق قدرتي على التخمين أو لفترة أطول من مهارتي في فراسة نصفه المضاد لحقيقته التي لم تكتشفها تصرفاته بعد. إن كان لا بد لك من أن تتوصل إلى شيء فعليك أن تعرف أنني أتلذذ بهيامه."

- أيعقل أن يروق لها عذابه طالما وهي تحبه؟
- لكليهما الصفات نفسها، وهذا ما يجعلني أحتار من تطابق سجاياهما! هل سيكون ميزة أم عيبًا؟ أتحدث عن مستقبلهما الافتراضي طبعًا.

- بالتأكيد التوافق ميزة.
- لكن لا تنسَ أن الذرات تحتاج إلى قطبين متضادين لتستقر، بينما خالد وريناد يشتركان في الدرجة ذاتها من الكبرياء. يا رجل، لم أرَ أحدًا ينتقم من تجاهل أحدٍ له بهذه الطريقة!

لم أعد أتذكر جميع المواضيع التي تطرقنا لها في ذلك المساء، فقد أنهينا لقاءنا بمقاطعة معمر لحديثنا. وصل إلى المقهى مع شابين كان قد تعرّف عليهما في صنعاء. كانوا ما يزالون ينفثون دخان السجائر ويمضغون القات حتى ذلك الوقت المتأخر من الليل. كان معمر قد أطلق شعر رأسه دون عناية، عدا قص سالفيه المتصلين بأعلى لحيته. في بنصر يده اليمنى خاتم من العقيق الخالص، وكان يرتدي ثوبًا فاتح اللون، وخنجرًا مستوردًا صُنع وفق تقاليد ذاك البلد. حول رقبته أكثر من سلسلة عشوائية، بينما كان يربط شعره الفوضوي الملتوي بشال كاكي لا يشبه ذاك المتسخ الذي كان يلازمه في القرية. لم تكن ملابسه غير الأنيقة وهيئته الغريبة تدل على رجل مهاب أو شاب قوي ومتمرد كما يظن، بل توحي بهشاشة يحاول إخفاءها بتصنّع الرجولة وجذب الأنظار إلى ملبسه.

قال معمر موجهًا كلامه لأخيه وهو مندهش لرؤيتنا معًا:

- أرى الحبايب متجمعين. ألا تخجل من نفسك عندما تجالس هذا السافل؟

قلت ببرود وكأنني أستخف من حماس معمر:

- قدرك أن تحرم من الرجولة، ضع اعتبارًا لأخيك الأكبر.

قاطع عمار شجارنا بقوله:

- معمر اذهب، لا دخل لك بمن أجالس.

انسحب معمر ورفاقه إلى طاولة خلفية، وهو يتوعّدني محمّلًا أخاه أسباب نجاتي منه، فقررت عندها الاستئذان.

❊ ❊ ❊

١٣

خرجت أتجوّل في أطراف أزقة المدينة الضيقة المشلولة بالظلام، لعليّ أنجو من مطاردة أفكاري في المستقبل الغامض. غير أن أملي الهارب تعثّر بأكثر من عربة بائعٍ جائل، وارتطم بالعابرين نحو المجهول، ليجعل اليأس يدركني من جديد.

قبل ذلك اليوم كنت أظن الفوضى وسطًا صالحًا للاختباء، كما قال خالد يومًا: "اللصوص يحتمون خلف ركام غياب القانون المنظّم للحياة". غير أني تفاجأت بأن العشوائية أيضًا تلعب على أكثر من حبل؛ فبينما تحمي أحدهم، تردي آخر.

الطريق غير سالك لعبور الأحلام. هذه ليست بداية لكتابة في اللاواقعية، وليست إحدى أدوات البلاغة التي تصقل الجمل لتبدو وكأنها في حفلة لغوية. إنها الحالة الليلية لمدينة صنعاء المتعثّرة بكوابيسها، أو النائمة قسرًا عنها؛ مدينة من الرعب والتحدي لا يمكنك أن تجد فيها طريقًا، حتى وإن قادك إلى مجرد نزهة من أحلام وردية.

لا مجال هذا المساء للأحلام، ولا مكان في هذا البلد للطرقات. إنها الخارطة الخالية من المساحة، والليلة الملتبسة بضجر ذروة النهار. هنا لا تنطبق المسميات على الأحداث، ولا تركن التفسيرات إلى مصطلحاتها؛ فالجميع

مبهم وغامض ولا يدل على معناه.

لم أكن أقطن كوكبًا آخر حتى يصعب عليكِ فهم كل ذلك، ولا معنى لأن أكتب ما قد عشتِه أنتِ أيضًا. إنما أعيد صياغة حججي على نحو تعذرينني فيه، فيروق للحرب بعد سماعها أن تتمادى في الزمن ما دامت لها أساسات موغلة في معاناتنا؛ ما جعلنا غالبًا نفضّلها على واقعٍ جبان بقي خارج الانتماءات الصريحة للسلم أو للحرب، لنجد أنفسنا أحيانًا ضحايا تطبّعوا بحياد خوف الواقع، وجرت معهم جماهير غفيرة من المستسلمين، وثُلّة قليلة من المتسلطين.

إياكِ أن تقلقي على قلمي من تبريراتي للحرب؛ فأنا لن أقدر على إنصافها في كتابة، ولن أنهيها برسالة ما دامت هي الحل والعقدة معًا. ستبقى الحرب خطيئة فوق أنانية من يحاول تمجيدها، وقدرًا يطوّق ضمير من يكافح من أجل ذمّها؛ حالًا صنعه سكوتنا، وماضٍ من فسادنا، وتاريخ أحقادنا، وموروث أطماعنا، وحقيقة أخلاقنا، لن يشيده نصّ ولن يدفنه كتاب.

هكذا أنهيت لقائي مع عمار بفسحة محبطة، لم أدرِ بعدها هل عرف تفاصيل نهاية قصة خالد وريناد، كما لم أدرِ هل عرفتِ بوجود قصة أصلًا أم لا! لكني التقيت به مرة أخرى، وهو يستعد للسفر إلى أوروبا. دون وجهة محدّدة مضى مهاجرًا غير شرعي، بلا أوراق رسمية ولا إقامات ثبوتية؛ يحمل ملامح المعاناة وتجاعيد عمر الوطن المريض، هاربًا من الأفق المسدود عبر سرداب مجهول المعالم والنهاية.

كان قد مضى على لقائنا في المقهى قرابة الشهرين. بدا عمار في اللقاء الثاني بهيئة غير معهودة: تشع منه نضارة مبهمة الأسباب، وتحدّد ملامحه نحافة تنطق بقلق المصير. برز جبينه أكثر من المعتاد، وخبأ التعب لمعان عينيه الدائريتين، وقد أحاطهما سواد كثيف. أطلق لحيته الخفيفة في إهمال متعمّد، وغطّت أسنانه صفرة بسيطة. ارتدى بنطال جينز أوسع من اللازم، وقميصًا أحمر تتخلله خطوط سوداء متعرّجة.

كان ذلك اللقاء استثنائيًا أيضًا، وغير مخطّط له، لكنه جرى هذه المرة في القرية، حيث جاء عمار لتوديع أهله وإعلان خطوبة مرام من خالد.

- كيف حصل هذا؟ سألت عمار باندهاش قبل أن أبدي استغرابي من شكله الجديد.
- لا أعرف. كل ما في الأمر أن العم نجيب قد زار والدي البارحة وأخبره أن خالد قد أوكل إليه أمر مفاتحتنا بالموضوع.
- وماذا كان ردكم؟
- قال له والدي إنه يحتاج إلى يومين إضافيين من أجل التشاور مع مرام قبل أن يجيبه برد نهائي.

ذلك اليوم كان عمار قد دعاني لتناول الغداء عنده. ذهبنا معًا إلى بيت العم علي، وأنا أفكر في السبب الذي دفع خالد إلى التقدّم لخطبة مرام!

كان المكان المهيّأ للغداء هو المجلس، وقد فُرش هذه المرة بسجاد فقط.

كان العم علي قد أخرج الأرائك العربية حتى لا يكون المجلس ملائمًا لجلسات معمر ورفاقه الممتدة إلى آخر الليل. كما غيّر باب الحمّام المجاور من باب خشبي إلى باب حديدي، ووضع عليه قفلًا يحتفظ بمفتاحه وحده.

قال لي العم علي يومها ممازحًا، وقد بدا مزاجه أفضل نسبيًا بعد تقدّم خالد رسميًا لمرام:

- أرأيت المجلس؟ أليس هكذا أجمل؟ على الأقل أصبح أوسع من قبل.
- صدقت، ولكنه غير مألوف.

أما معمر فكان منهمكًا بإحضار الطعام من البيت إلى المجلس، في أواني طينية تحتفظ بحرارة الأكل. أذكر أن الغداء كان يتكون من السَّلْتَة والخبز المعدّ بالطريقة المحلية.

في خضم المعركة مع الطعام الساخن والحار، أردت أن ألطف الجو فقلت موجهًا كلامي للجميع:

- عقبى ما نفرح بعمار قريبًا.

معمر، الذي بدا هذه المرة ألطف من أي مرة سابقة، ظل متمسكًا بفوضويته في تصفيف شعره وبخاتم إصبعه. قال:

- هنيئًا له، لو لم يظفر من أوروبا إلا بالشقراوات لكان الرابح.

لم يرق للعم علي تعليق معمر الذي يستهين بمخاطر ما سيتعرض له أخوه.

فقال بصرامة:

- اخرج لجلب المزيد من الخبز.

لم يُتح لي الوقت للبقاء طويلًا مع عمار. وفي اليوم التالي، وهو اليوم الذي أُشهرت فيه خطبة خالد، حاولت استثمار لقائي بعمار ليسرد لي سبب عزمه على السفر إلى أوروبا. قال يومها إن عمله في وزارة الكهرباء لن يضمن له تحقيق أحلامه مستقبلًا، كما أنه لا يلبي احتياجاته الآنية.

نصحته بالبقاء في البلد وتجنّب مخاطر السفر مهما كان الوضع، فالأشرف للإنسان أن يموت في موطنه من أن يُهان في بلاد الغربة. لكنه ردّ وقد كسرت الحسرة كلماته:

- لم يعد الوطن يا صديقي سوى بطاقة انتماء لا نشعر بها إلا عند ارتداء سترتنا. بطاقة غير صالحة لعبور حدود بلد ضقنا به. وطن لم يَحْمِ مواطنيه ولا حمى نفسه من المستوطنين. ما يؤلم حقًا أنه لم يعد يساوي حتى ثمن تذكرة سفر، لقد انحدر إلى أن صار مقعدًا بعشرين سنتيمترًا على متن قارب تهريب يتأرجح فوق الحيتان. لعلك تتذكر ما كان يقوله خالد أيام حرب الصومال الأهلية: الأوطان، حين يصل بها الحال إلى الانتقام من أبنائها، تمحو من هوياتهم كلمة "مواطن"، وتستبدلها بصفة "لاجئ".

❊ ❊ ❊

١٤

رحل عمار في صبيحة اليوم التالي. لم يكن يعرف أي أقدار سترافقه، وغير محتاط من شيء. تعمّدت أن أصحو باكرًا لأودّعه وأحثه على أن يكاتبني حال وصوله، لكنه كان قد غادر دون أن يودّع أحدًا، متحينًا فرصة خروج العم علي إلى صلاة الفجر، ليخرج ساعتها دون أن يكلف نفسه عناء سماع كلمات الوداع التي تظل عالقة في الذاكرة ويتردّد صداها في مجالس العزاء.

كانت تلك آخر فرصة لي لرؤية عمار. عرفت لاحقًا أنه عانى كثيرًا في مراحل سفره؛ فقد حُشر داخل حاوية بضائع لمدة يومين خلال إحدى رحلاته البحرية، ومشى نحو سبعة أيام راجلًا في إحدى صحاري شمال أفريقيا، ثم تشرد في ثلاثة بلدان أوروبية لمدة ثمانية أشهر، ينام تارة في الكنائس، وأخرى في الباحات العامة وتحت الجسور... إلى أن وصل أخيرًا إلى السويد وحصل هناك على حق اللجوء الإنساني.

فيما بعد، كنتُ أتواصل معه بفضل ثورة شبكات التواصل الاجتماعي، غير أنه بدا وكأنه يتعمّد عدم الإسراف في الحديث، في سعيٍ منه- كما بدا لي- لنسيان الماضي الذي أصبح يلاحقه داخل شبكة العناكب المعقدة. حاولت أن أذكره ببعض المواقف التي جمعتنا معًا، والتي كانت في معظمها محرجة أو مضحكة، لكنه لم يكن ينجرّ إلى الدهشة أو التفاعل، بل يكتفي بالقول:

لقد كبرنا وعلمتنا الحياة. الذاكرة سجن سيّئ، ويجب على المرء أن يبحث عن حاضره. ثم يغير الموضوع بسؤالي عن حالي وجديدي.

جاء خالد بعد رحيل عمار بعام ليعلن موعد زفافه في صيف (٢٠٠٦)، وهو تاريخ ما زلت أذكره جيدًا لارتباطه بأكثر من حدث: الحرب الإسرائيلية على لبنان، والتحضير للانتخابات الرئاسية الوطنية.

هذه المرة أتى مثقلاً بوقار لحيته المنسدلة على وجهه الدائري، يعتمر عمامة بيضاء، ويلبس ثوبًا أبيض بلا حزام، وفوقه معطف أسود يصل إلى أعلى ركبته. ازدادت بشرته صفاءً لكثرة خلواته في المساجد من أجل القراءة والتعبد، حتى بدت مائلة إلى الاحمرار، ولا يفارق السواك فمه.

كان أول ما فعله بعد عودته هو بناء ساتر حجري بارتفاع مترين ونصف يحيط بالسطح الذي بُنيت عليه غرفته من جميع الاتجاهات، حتى لا تنكشف تحركات مرام مستقبلًا. كما وجَّه بإنشاء درج داخلي أكثر أمانًا.

ولم يكن الاستثناء الوحيد في تصرفاته الجديدة زيارته لبيتكِ يوم وصوله من غربته التي قاربت العامين. لم تكن زيارته بدافع الشوق، بل تقرّبًا إلى الله. ظهرت في يومياته عادات جديدة: صار لا يروق له المزاح ولا التطفل، حادًا وصارمًا، تُجبِرك شخصيته على عدم تجاوز حدود التعامل معه. حتى إنني يئست من مفاتحته في سبب اقتناعه بمرام وتخليه عن ريناد؛ فهذا الموضوع كان يشغل بالي أكثر من أسباب إفراطه في التدين.

انقضت زيارته المباغتة سريعًا، تاركًا في بالكِ أسئلة كثيرة أعدتِ عليّ طرحها لأيام. تساؤلات محيرة: هل عاد خالد فعلًا؟ أم أن رجوعه تأكيد لغياب أبدي؟ فأردّ عليكِ بأسئلة أخرى:

- وهل التدين ضياع من وجهة نظرك؟
- أستغفر الله. ليس هذا قصدي، لكن حديثه عن العفة ومضمون لقائنا الذي تحول إلى ارشادات جهادية، جعلني أتوجس من تطرفه.

وضعتِ حدسكِ في لقاء عابر، فأثبتت الأيام نبوءتكِ يا سيدة الحسبان. لم يخذلني إحساسي بكِ يومًا. دعيني أتغزل بكِ حتى وأنتِ تتفحصين التقويم من دون فناجين، وتبصرين العمر من غير كفوف، فيتولد في داخلي شوقٌ يقينُه العودة إليكِ، ونبوءة أنكِ تعلمين جيدًا كم تبقى من أيام ضالة خارج الحياة. معرفة تفوق قدرة أي سجان على كتابة النهايات التي لم يتوجس يقينك منها. بفضل إيماننا سنعبث يومًا بإنكار اللقاء، كما غيّرتِ سابقًا من أقدارك المنحازة لياسر. لعلها طاقة قاهرة تفوق نيران الحروب، تحطم قيود السجان، وتزيح عن الحياة كل من اعترض الطريق، أيًّا كان ثقل ذكائه أو جور تميزه. أما خالد فقد انفردت به خارج البيت، وسألته مباشرة:

- لماذا تركت ريناد؟

كان وقع سؤالي كمن أعاده فجأة إلى طبيعته القديمة. أجاب بعادته الأصلية:

- لقد تركت الحياة بأكملها وتوجهت إلى الله. ليست ريناد سوى شخصية ضمن تفاصيل كثيرة.

- لم يتبق من خالد السابق إلا مراوغاته، لمَ لمْ تعلن توبتك عن هذه العادة أيضا؟

ابتسم ابتسامة خجولة وقال:

- ماذا تريد أن تعرف بالضبط؟ لم يعد كل هذا مجديًا، المهم أنني وصلت إلى أساس كل مشاكلنا.
- وما هو سبب المشاكل؟
- بُعدنا عن الدين. تقليدنا للآخرين حوّلنا من أمّة رائدة إلى أمّة ضعيفة ممزقة. عاقبنا الله بالجهل والتخبط بعدما أعطانا أسرار الوجود.
- يا شيخ خالد، سمعت منك هذا الكلام في الداخل. سألتك عن ريناد.

تنهد ثم قال.

- كما أخبرتك، والدها جزار، وقد قال إنه لن يدخل في مشاكل قد تعرّضه أو أحد أقربائه للخطر. أخبرني أن قبيلتي ستمنع هذا الزواج إن علمت بحقيقة من يكون صهرهم، وربما يتعرض هو أو أنا للأذى. لا يريد الدخول في مشاكل. عرضت على ريناد أن نهرب معًا، لكنها رفضت بحجة العار الذي سيلحق بأبيها، كما أني لم أكن أملك المال ولا الوجهة.

- إذن، طلبت يد مرام انتقامًا من ريناد؟
- ليس تمامًا.
- لماذا تحول مشاعر الحب إلى قرارات انتقامية؟ ألا ترى أنك أخطأت في حقكم جميعًا: أنت، وريناد، ومرام؟
- أحببت ريناد حد الجنون. لم أتخيل أن الحب سينتهي بقرار تحكمه عوامل رقمية. نعم قد يكون خطأ، لكنه النتيجة الصحيحة. ريناد معاندة. تخيّل: في البداية ظننت أن إقناعها هو التحدي الأهم في حياتي، بينما كانت هي تعتقد أن إنجازها الوحيد أني أحببتها. ليحدث بعد ذلك ما حدث... إن بحثنا عن الأخطاء، فلماذا جعلتني أتبع الطعم وهي تعلم أن الخيط مقطوع؟ لقد استخفت بمشاعري منذ البداية.
- وماذا عن مستقبل مرام؟
- لقد استخرت الله من أجلها مرات. أنا الآن أكثر إيمانًا. لم يعد المستقبل يعنيني كما من قبل. صرت أتحسر على عمري الضائع في وهم التخطيط للمستقبل. الله لم يطلب منّا ضمان المستقبل، بل إصلاح الحاضر.
- لا تنس أن الله طلب منّا تحديد نياتنا، أليست النوايا مقترنة بالمستقبل؟ فلماذا طلب منا تحديدها إذن؟ بل إنه جعلها أهم من الأعمال.

- صحيح. لكن الاهتمام بالحاضر سيصلح المستقبل تلقائيًا.
- كيف تُعيد الحديث إلى مسيرة هدايتك؟ كنتُ أحدثك عن ريناد.
- وأنا لم أخطط للحديث عنها. قلت لك: لم أعد أخطط لشيء.
- ضحكت وقلت: أما أنا فلا أميّز ما إذا كنتَ تطبّق معتقداتك حقًا أم أنك تبرهن عليها لتقنعني بها.
- هدايتك صارت من معتقداتي أيضًا.
- ما دمت تعتقد، فأنت لم تتخلّ عن التخطيط نهائيًا.

❊ ❊ ❊

١٥

أنجاني أذان المغرب من نقاش خالد، لكن ذهابه جعلني أواجه أسئلة الفراغ المزعجة. كنت أكرر على نفسي مثلًا: لماذا يتخلى الإنسان عن معتقداته بهذه البساطة؟ ولماذا يطفح الحب ويمتلئ الوعاء بالانتقام بالسهولة نفسها أيضًا؟ شعرت بحنين إلى خالد السابق. تمنيتُ، وأنا أبكي، لو أن الزمن توقف عند اللحظة التي عرفته فيها؛ الشخص المعاند والمكابر الذي لا يتخلى عن أفكاره وميوله. عندها أدركت أن الحنين لا تصنعه تراكمات السنين، بل حدّة الذكريات.

في الأيام اللاحقة سافر خالد إلى صنعاء، ولم يرجع هذه المرة إلا مع موعد زواجه في صيف ٢٠٠٦. كان قد أضحى أكثر تشددًا، يحمل أفكارًا متطرفة جعلته، عشية زواجه، يقف بعد صلاة المغرب يذكّر الناس بإثم من يذهب إلى الاقتراع، واصفًا من يخالف بأنه معيق لتطبيق حكم الخلافة ومبادئ الشورى.

تزوج دون احتفال. اقتصرت مراسم زفافه على محاضرة دينية حضرها قرابة أربعين شخصًا؛ ثلاثون منهم من رفاقه الذين جاؤوا من مناطق متفرقة في البلاد، جميعهم يرتدون الملابس ذاتها التي ارتداها خالد عقب خطبته. أما العشرة الباقون فكانوا: والدي، وأنا، والعم نجيب، والعم علي، وإخوة العم علي مع أولادهم الثلاثة. بينما عزف معمر ومعه معظم أهالي القرية عن

المشاركة في طقوس خالد الغريبة، مفضلين حضور أجواء تشبه المهرجان الشعبي الذي أقامه أحد مندوبي الحزب الحاكم. وصل ذلك المندوب في سيارة فارهة ترافقها أربع سيارات، إحداها مكشوفة ثبتت عليها مكبرات صوت تذيع أغانٍ وطنية، تتخللها شعارات تحفيزية وكلمات مسجلة لمرشح الحزب، يكرر فيها وعودًا سبق أن سمعها الناس مرارًا.

وبينما فتية القرية يهرولون للظفر بالصور الدعائية التي وزعها شابان كانا قد اعتليا السيارة المكشوفة كان أهالي القرية يعبرون عن ابتهاجهم بقدوم أعضاء الحملة الدعائية وقد محت نعومة وجوه الضيوف من ذاكرتهم خياراتهم الثورية التي يناقشونها على الدوام. انخرطوا مع أفراد الحملة وسط جو من الحماس والتعاطف العجيب في ترديد الهتافات الحزبية وكأن همس نضالهم السابق قد تطور إلى صيحات مباركة لحسن إدارة البلاد.

أما أنا فقد كنت مجبرًا على الاستماع إلى الخطباء الذين تناوبوا على شرح الفتاوى المحرمة للانتخابات. أتذكر أني كنت أكثر من يقاطع المتحدثين، لكنني توقفت بعد أن أبدى خالد امتعاضه من إحراجي لضيوفه. شعرت يومها بتفوق حججي، وهو إحساس جعلني أستحضر شعور خالد نفسه أيام نقاشات مجلس عمار. لم أكن أتوقع أنني، لاحقًا، سأنجر إلى حرب يغلب عليها الطابع الطائفي.

ذلك اليوم لم تصحبه الشمس، بل واصل مظاهره المشحونة حتى المساء. لم يكتفِ ضيوف خالد بمواعظهم في احتفالية الزفاف، بل أعلنوا عن إقامة

محاضرة أخرى عقب صلاة المغرب، روج لها خالد منذ الزوال عبر مكبرات الصوت المثبتة على منارة المسجد. أرادوا بمواعظهم استهداف أكبر عدد ممكن من أهالي القرية.

حضرنا عشيتها الموعظة داخل المسجد المبني بالحجر الأصفر وله بوابتان على شكل قوسين ويفصل بينهما عمدان من حجر أسود أطلق الناس عليه اسم الحبش. أما الداخل فقد غطت السقف قبة بيضاء من خشب قديم، وحددت ملامحه الجدارية زخارف وكتابات لآيات قرآنية محفورة على الجص ومطلية بالنورة البيضاء. اعتلى أحد ضيوف خالد المنبر الخشبي دون أن يستأذن من إمام المسجد الحاج صالح، الذي لم يُكلف رسميًا من الجهات المعنية، وإنما اكتسب مكانته من علم محدود حصّله بمكوثه في مكة لفترات قصيرة أثناء مرافقته للحجيج، ومن سماحةٍ واعتدالٍ منحتْه له البيئة.

شرع ضيف خالد موعظته يومها بكلمات راعى فيها الاستناد إلى اللغة العربية الفصحى وهو ما جعل كلامه منذ البدء غير مفهوم عند أغلب المتواجدين في المسجد لاعتيادهم على خطب الحاج صالح غير المتكلفة. انهمك سريعا في تحريم الانتخابات ساردا الاستشهادات التاريخية التي تثبت عدم استخدام الديمقراطية في عملية انتقال السلطة.

قاطعه الحاج صالح قائلاً إن الإسلام لم يُلزم أتباعه بطريقة واحدة لانتقال السلطة، بل تنوّعت الوسائل، كما أشار الضيف نفسه في استشهاداته. ردّ الضيف بصرامة أن الديمقراطية مستوردة من الغرب الكافر، وأن للمسلمين

نظامًا بديلًا هو الشورى. دفع هذا الرد الحاد الحاج صالح إلى التوقف عن الجدال، إكرامًا فيما يبدو لخالد وضيوفه، لا اقتناعًا بحجتهم. عرفت ذلك لاحقًا حين سألته عن مستقبل التشدد والجماعات الدينية المتطرفة في البلاد، فقال:

- يا بُني، ما دامت المعارضة مترددة، والنموذج الديمقراطي الذي تقدمه الحكومة رديء، فالمستقبل القريب سيكون من نصيب الجماعات الدينية. ألم تلاحظ كيف اندفع الناس اليوم إلى التأييد رغم مواقفهم السابقة من السلطة؟ الدولة نفسها تجيّر إمكاناتها لخدمة مصالح أفرادها. الصراع الحقيقي الآن بين الأصوات الخارجة من مكبرات الحملة الانتخابية، وتلك التي تصدح من المسجد. وفي يوم ما ستكون الغلبة للجماعات المتطرفة، فهي تعد الناس بجنّة في الآخرة، بعدما فشلت السلطات الحاكمة في منحهم جنة في الدنيا.

في آخر الليل عدتِ مستاءة من رفض خالد إقامة مراسيم احتفالية لاستقبال العروس. يومها أيقنتِ أن أخاكِ قد أصابه مسٌّ ما. وما زاد امتعاضك الموقفُ السيئ الذي تعرضت له مرام، غير مدركة أنها ستعيش أيامًا أشد تعاسة بعد أن انضم خالد رسميًا إلى تنظيم القاعدة، تاركًا القرية نهبًا للتكهنات: من قائل إنه غادر إلى أفغانستان، إلى من يجزم بأنه قُتل، أو اختفى بسبب ملاحقة الأمن له.

١٦

لا أدري، هل غيّرتِ تشخيصكِ لحالة خالد "المسحور" بعد أن عاينتِ ظروف عودته الأخيرة، بعد زواجه بنحو سبعة أشهر؟

عاد وهو يشعر بالانكسار مثل سور مدينة قديم تطاولت على كبريائه حضارة المصاعد والسلالم الحديثة. عاد تلك الليلة كئيبًا مثل مقصلة سلبتها البنادق حرفة فصل الرؤوس.

عاد ليبرّر فشله بقوله: لم أستطع تفجير العبوة الناسفة في المكان المكتظ، لقد وضعتها في المكان الخطأ.

كنتِ تلك الليلة تريدين أن تشي بخالد للأمن. كنتِ أكثر جرأة، وأقل تمسكًا بروابط الأخوّة معه. كانت مشاهد نشرة الأخبار المسائية كافية لتحطيم ما تبقّى بينكما: لهجة المذيعة الباردة، صوتها المكسور، دموع أمّ ذلك الجندي المقتول، كلّها كانت كفيلة بقطع حبال المودّة بينكما.

عندها أدركتُ أن الإنسان ينحاز للإنسان، وأن روابط البشر أعقد من شفرات الأحماض الوراثية، وأغمق من لون الدم. الآدمية تتوحّد في قواسمها المشتركة؛ الحقيقة ليست في أرحام الأمهات ولا في أثداء المرضعات، بل في مفهوم الحب، ومبدأ التعايش، وسنن الفطرة الصافية التي تمثّل مغناطيس البشرية.

وسط تلك الليلة المرتبكة حاولتُ أن أوجّهكِ للصمت، خشية أن يسمع الجيران صراخكِ وينكشف أمر خالد. لكنك قلتِ وأنتِ تبكين:

- أريد أن أُسمِع الجميع عن هذا السفّاح! ألم تسمع ما يقول؟ هو حزين لقلة الضحايا!

أما خالد فقد عاود حديثه إليّ بالفصحى التي اكتسبها في معسكرات التدريب. قال بنبرة حادة:

- صوت المرأة عورة وهذه تتمادي في رفع صوتها.

لم يكن يخشى- على ما يبدو- من سماع أحد لصوتكِ، بل كان يخشى عقاب الله، ويمتثل لما يراه تعاليم الشريعة.

كان عليّ في تلك الليلة أن أجبركِ على الصمت، وأقنع خالدًا بالرحيل من القرية مع طلوع الفجر، بعدما بدأت الأخبار عن صلته بالتنظيم، وتوقّعات اختبائه عندنا، تنتشر كالنار في الهشيم.

استسلمتِ أخيرًا، وقد جحظت عيناكِ بالدموع، ومضيتِ نحو الغرفة بخطى سريعة وأنتِ تحدّقين إلى الأرض. بينما أخذ خالد يمسح لحيته المنسدلة حتى صدره، ويتمتم بعبارات الاستغفار ردًّا على استفزازاتكِ. فجأة سمعت صوت باب غرفة أمي يُفتح. كانت قد استيقظت على ما يبدو بسبب الشجار، وخرجت يتبعها أبي وهو يقول: خير يا بني؟ ماذا حصل؟ من جاء عندنا؟ سلامات.

قلتُ له: هذا خالد عاد ليكمل إخراج مشاهد الرعب هنا.

حينها خرج خالد، ولم يعد منذ ذلك اليوم.

❊ ❊ ❊

١٧

أما ما يخصّ مصير مرام وتدهور علاقتكِ بها، فلا أريد أن أستخدم عبارة "هكذا هو أخاكِ" حتى لا أعيركِ بالانتماء فتزداد وحدتكِ إلى حد قد يدفعكِ إلى اعتزال أوراقي. سأقول: هكذا هو خالد؛ القادر الوحيد على صناعة التحولات ورسم مسارات الآخرين، أيًّا كان موقعه. ربما حوّللكِ اختياره الجديد من جليسة لمرام تلقّنينها صفاته الحميدة وتتباهين بأخلاقه ورجولته، إلى مستمعة لشكاوى امرأة أفقدها أخوكِ نفسه حرية الانحياز. كما أفقد مرام قبلكِ رغبة الإصغاء للآخرين، لتقرّر صديقتكِ القديمة أن تكون هي المتحدّثة وحدها. وبالمقابل، فقدتِ أنتِ شوكة ميزانكِ، وأُجبرتِ على اعتزال الانحياز لأي طرف، تاركة الترجيحات والثِقل معًا، خفيفة هذه المرّة حتى على الانطواء.

لعلّه قدر جيّد أن لا تعيشي إلا مرغوبة، في فسحة من الحفاوة التي لا تشعرين بها إلا حين ترين أحدهم وقد أجبره طبع مراضاة الآخرين على تحديد موقع إقامته، فيتصرف كما لو أنه في صراع مع أمكنتهم، ليعيد تعريف الوجود على أنه أمر يخصّ الأماكن، بينما نحن لا نرتبط إلا بالزوال. فيبدو مجامِلًا حتى في تحليلاته، وقد منح الأماكن كما منح سادته حقّ التفوّق والامتياز عليه.

أكان ابتلاءً أيضًا أن يوقع عليكِ القدر مصيبة مضاعفة، أم أنه تواطأ معكِ حتى

لا يتشظّى عذابكِ ويتوزع على أكثر من وجع؟ لم أعد أعرف عنكِ كما كنتُ من قبل، مثلما لم أعد أدري كم الساعة الآن التي أكتب إليكِ فيها. الليل هنا بلا زمن: لا وقت مبكر فيه ولا متأخر، كلّه كتلة عديمة الزمن.

يصعب عليّ إبقاءكِ على صلة بمشاعري لتعرفي ما أمرّ به؛ فأنا أيضًا مضطرب، غائم الشعور. أشعر بالتيه رغم أني في أضيق مكان. أشيائي تتسرب مني من غير أن أشعر بخروجها، وأخسر عمري وأجهل نفسي كما أفتقدكِ. صارت التراكمات عندي لا تعني الزيادات بل الخسارات.

السجن يفتك بإيماني الصامد، خاصة يقيني برجوعي إليكِ. هذا الصباح حدّثني أحمد عن صديقه خليل الذي قضى تحت التعذيب، قال إنه اعتُقل أثناء تأديته لمهمة صحفية. تخيلي! صرت أخاف من قلمي المشوّه ومن أوراقي المتسخة. نصحني أحمد ألّا أكتب فترة. قلت له: لا أحد يخشى ما نكتبه؛ نحن نكتمه أو نبوح به خلسة، عملًا بقاعدة التسلّط التي تنص على: "ما بقي على قيد السرية مسموح به". هم يعرفون أن لا أحد من العامة يطيق تجّار الحروب، سواء كانوا في هذه السلطة أو تلك. لكن عملهم المافيوي حبّبهم بالأسرار، وجعلهم لا يمانعون بها طالما بقيت طيّ الكتمان، سواء كُتبت أم لم تُكتب.

- وهل ستضمن لنفسك الحياة لمجرد أنك تكتب من سجن سجانوه يعانون من عقدة الثرثرة؟ تساءل أحمد.

- لم تعد تفرق. في الحالتين نحن نموت تدريجيا. ماذا لو لم يمت خليل تحت التعذيب؟ هل كان سينجو من الانتحار بسبب حالته النفسية السيئة؟ المهم أنه الآن في الجنة، وهذا أفضل له من العيش تحت سياط أبو صقر.
- سيظل الموت فكرة مجردة، صعبة التقبّل ومرفوضة أيضًا حين نتحدث عنها بشكل شخصي. لكن حين يتعلق الأمر بغيرنا، ننظر إليه فلسفيًا كأنه بداية حياة جديدة.
- هل تنكر الحياة بعد الموت؟
- يا حامد، لا يهم إن كنت أؤمن بها أم لا، في الأخير نحن نموت ونترك خلفنا حياة حقيقية وملموسة، وإذا كانت تعنينا حياة البرزخ أفضل من الحياة التي نعيشها، فماذا عن الآخرين الذين فقدونا وشكّل لهم رحيلنا معضلة حقيقية في التعامل مع الحياة الدنيا؟
- سيتعاملون مع الموت كفكرة فلسفية، فغيابنا لا يعني بالضرورة فناءنا. ربما، من باب المحبة، لن يشعروا بالحزن علينا؛ سيتصورون أننا سنعيش حياة أفضل مما كنا نعيشها. لكنهم في الحقيقة مهمومون بعدم ثقتهم بحياتهم من دوننا.
- إذن، أنت تقول إن التفسير الفلسفي للموت وُجد ليعزّي الأحياء عن فقدانهم للأموات؟

- لا تحاول إقناعي بوجهة نظرك. الحقيقة أن الموت يعني الفناء.
- كلامك السابق يشير إلى العكس.
- كل الأديان ترى أن الدنيا محطة تليها حياة خالدة.
- أنا أؤمن بوجود حياة أخرى. لو لم تكن هناك فكرة عنها لتحولت حياتنا إلى غابة بشرية البقاء فيها للأقوى. لكنني أتحفظ على تفاصيل تلك الحياة، وعلى الكيفية التي سنبدو عليها ونحن نعيشها.

❊ ❊ ❊

١٨

تساءلت عن سبب تعاسة خليل، مستعيدًا محاولتي الفاشلة للتقرّب منه، فقد كان شديد الحساسية تجاه الآخرين. أخبرني أحمد أن خليل رحل ومعه أسراره، فقد عانى كثيرًا وفضّل أن يطوي الموت كل ما لم يشأ أن يعرفه أحد. ومع ذلك، ظل فضولي قائمًا أمام إصرار أحمد على الصمت، بحجة أن خليل اختار الموت ليدفن معه أثقاله: "فما الجدوى من البحث في قصته الآن وقد تحققت أمنيته؟" أضاف: "مثلما دفن خليل أسراره سندفن نحن أيضًا أسرارنا يومًا ما، فالموت قادم لا محالة." لكن فضولي كان أقوى من محاولات كتمانه، فاستجاب في النهاية قائلًا:

- سيبقى هذا بيني وبينك. أول ما لفت انتباهي أن خليل بدا غير مبالٍ حين أدخلوه إلى هنا، وكأن الحياة فقدت معناها لديه. كانت الحقيقة جلية في تصرفاته مهما أخفت ملامحه الشبابية المميزة حياةً مترفة عاشها بخلاف كثير من أقرانه. وقد أكد لي ذلك بنفسه خلال أحاديثنا الطويلة. ما قرّبه مني هي سجيتي البسيطة، التي قال إنها تشبه طبع خاله.

كان خاله يعيش معهم بسبب ظروفه المادية الصعبة، بينما مستوى عائلة خليل كان جيدًا. والده كان طيارًا مدنيًا يقضي معظم وقته في رحلات خارجية، ما

جعل وجود خاله راشد ضروريًا في البيت. ولأن راشد شاعر، فقد ملأ البيت بالكتب والصحف، فكان لذلك أثر بالغ في ولع خليل بالكتابة، حتى التحق بكلية الإعلام وتخرج في قسم الصحافة، متقنًا الإنجليزية والفرنسية. هاتان اللغتان فتحتا أمامه أبواب التعرف إلى رؤساء صحف حاولوا استمالته للعمل معهم، سواء لحساب شخصيات نافذة في السلطة أو معارضين لها. لكنه لم يكن يميل للإعلام المسيس، بل ظل وفيًا لاقتناعه بأن التصحيح لا يرتبط بحزب أو سلطة وإنما بالقيم الفكرية. لذلك التزم بالكتابة لمجلة محلية مستقلة تعنى بالفكر والثقافة والفنون. ورغم أن أجرها كان قليلًا، إلا أنه ظل سعيدًا لأنه يكتب بضمير، إذ لم تكن حاجته للكتابة مادية.

ما شغله حقًا كان عزوف الناس عن القراءة، فشارك في منتديات ومبادرات تشجع على المطالعة، ما قاده لاحقًا إلى التعاون مع منظمات دولية. وبعدها تعاقد مع منظمة تهتم بالتراث إلى جانب مواصلته الكتابة، وحصل لاحقًا على فرصة كاتب محتوى في صحيفة عربية مشهورة حققت له شهرة واسعة. لعلك قرأت له أو سمعت به قبل السجن.

بعد اندلاع الحرب، انتقل للعمل في منظمة إنسانية، واستمر هناك خمسة أشهر فقط قبل أن يُسجن. وخلالها طاف معظم المحافظات اليمنية، وظل يقيم الدورات ويشجع الشباب على القراءة.

وأثناء ما كان مدربًا في إحدى الدورات، تعرّف إلى فتاة مشاركة، نشطة ومليئة بالحماس وتسعى لتعليم النساء. كانت تحدثه عن برامجها بشغف وتطلب

مساعدته في إيصالها للمنظمات. تطورت علاقتهما تدريجيًا حتى صارا يلتقيان خارج أوقات التدريب. وفي أحد الأيام تناولا الغداء في مطعم حديث بصنعاء، وهناك صارحها بموقفه الاجتماعي والسياسي؛ قال إنه لا ينتمي لحزب بل لأفكار معتدلة، لأن الأحزاب والجماعات لا تسعى إلا لمصالحها. ظلت تبدي إعجابها برأيه، ثم روت له قصتها.

كانت قد نزعت نقابها وجلست معه في القسم العائلي المحجوب بستارة قماشية. هي، بحسب وصفه، في الثامنة والعشرين من عمرها، جميلة، ذات عينين بنيتين واسعتين، أنيقة المظهر. حدّثته عن زواجها الفاشل الذي لم يدم سوى عام واحد، قبل أن تنفصل عن زوجها بسبب إدمانه المخدرات وقضائه معظم وقته مع أصدقائه في السهرات، مستغلًا الإيجار الذي كان يتقاضاه من أملاك والده المغترب مع والدته في الكويت. أخبرته أنها تعيش مع أبويها، وأن والدها يدير مطعمًا في محافظة ساحلية ولا يزورهم إلا كل بضعة أشهر، بينما تمكث أمها معظم الوقت وحيدة في الشقة، وهي، كما وصفتها، امرأة طيبة وهادئة، لكنها تعيش شعورًا دائمًا بالحرمان من إنجاب المزيد من الأبناء، بعد استئصال رحمها بسبب ورم.

في نهاية اللقاء دعته خديجة لزيارتهما في البيت الأحد القادم لتعرفه بأمها. وقد زاد ذلك اللقاء من إعجابه بها لكفاحها ونشاطها رغم ظروف الحياة.

تردد خليل في زيارتها بسبب التقاليد، لكنه قبل بعد إلحاحها، وزعمها بأنها قد أخبرت أمها. اتفقا عبر الرسائل النصية على أن يزورهما عصر الأحد. وفي

طريقه اشترى كيسين من الفاكهة، وصعد إلى شقتها الكائنة في الطابق الثالث من بناية راقية في صنعاء.

استقبلته خديجة بابتسامة خجولة ووجنتين محمرتين. كانت ترتدي عباءة وطرحة شفافة كشفت تفاصيل شعرها المسرح باهتمام. وكان في مظهرها اهتمام واضح. تنتعل حذاءً بكعب عالٍ وتضع حناء على قدميها.

دخل الشقة فوجدها أنيقة، بأثاث قليل وعصري. جلست قبالته لكنها أشارت عليه بالجلوس في صدر الصالة ليستمتع بمنظر الغروب، كما قالت، وهي تكرر الترحيب. وبينما كان يتأمل المكان، انتبه إلى غياب والدتها...

- نسيت أن أخبرك أن أمي ذهبت لزيارة أختها. خالتي تسكن شمال صنعاء، وقد تعرضت ظهر اليوم لإغماء بسبب ارتفاع السكري.
- عليها العافية. إذًا المعذرة، واضح أني جئت في وقت غير مناسب.
- لا مشكلة. أهلا وسهلا بك. بما أنك أتيت دعنا نضيفك ونناقش موضوع مدرسة محو الأمية التي حدثتك عنها.
- سيكون هذا غير لائق. الأفضل أن نناقش الموضوع في المركز. تعرفين كلام الناس.
- طمأنته: لا تقلق. الشقة المجاورة خالية. أصحابها مغتربون، والناس هنا لا يشغلون بالهم بالآخرين. أيش تحب تشرب.

دخلت لتحضير الشاي، بينما انشغل خليل بالتفكير في جرأتها على استقباله داخل الشقة في غياب والدتها. دار في ذهنه احتمالان: إما أنها واثقة من نفسها،

أو أنها فتاة متحررة أكثر مما ينبغي. لكنه فوجئ بها تعود وقد نزعت العباءة وطرحة الرأس، لتظهر بفستان أحمر مكشوف الظهر والذراعين يصل إلى منتصف ساقيها، مطرّز بفصوص لؤلؤية. في يدها صحن يحمل فنجاني شاي، وفي اليد الأخرى طبق كيك بدا من إتقانه أنه معدّ في محل حلويات.

تظاهر خليل بالهدوء كي لا يبدو أسيرًا لعادات المجتمع، وقال مبتسمًا بخجل:

- عذبتِ نفسك، ما كان في داعي.

أجابته وهي تضع الفناجين:

- إن شاء الله يعجبك الشاي. أنا بنت اتكالية على والدتي في شؤون المطبخ.

ارتشف الشاي وكأنه يهيئ نفسه للإعجاب به مسبقًا، ثم قال وهو يهز رأسه:

- حلو. والكيك من صنعكِ؟"
- ضحكت: الحقيقة أمي هي التي صنعته.

مدّ يده ليأخذ قطعة، لكن يدها سبقت لتضع أصابعها على القطعة نفسها، فلامسها دون قصد. سحب يده معتذرًا، غير أنها بادرت بالقول: "أنا من يجب أن يعتذر، لم أقصد." أخذ قطعة أخرى وهو يشيح نظره عنها ويتمتم مستلذًا:

- اممم تسلم يد الوالدة.
- أعجبك؟

- نعم، طعمه لذيذ.

بعد أن فرغ من فنجانه في جو شاعري وملتبس، دعته خديجة إلى غرفة الضيوف لترِيَه دراسة جدوى مشروع مدرسة محو الأمية المخزنة على حاسوبها المكتبي. لكنه اقترح أن تنسخ المشروع على قرص صلب ليطلع عليه في البيت. أصرّت برجاء:

- لو سمحت، شوفها هنا. إذا عندك ملاحظات أعدلها الليلة.
- لا بأس تفضلي.

سبقته إلى غرفة الجلوس، تمشي أمامه بإثارة متعمدة. فتحت الغرفة، فإذا هي تضم مكتبًا عليه جهاز حاسوب، وكنبة، وسريرًا صغيرًا، وخزانة خشبية، وثلاث كُمدينات تعلوها مزهريات فخارية، بينما السقف مشكَّل بالجبس وتتدلى من وسطه ثريا وثلاث نجف تنير المكان بسطوع.

انحنت خديجة لتوصل سلك الحاسوب بالكهرباء، فيما كان خليل يقف مسندًا ظهره إلى الحائط بجوار العلبة الكهربائية. نهضت فجأة، واستقامت أمامه ثم أمسكت بقميصه بقوة، وقالت بصوت يختلط فيه الفحيح بالرجاء:

"أنا أحبك يا خليل... أتعبني عشقك... ألم تفهم حاجتي إليك؟

استسلم خليل لضمّها إليه وقد شُحن جسده بالإثارة واشتعل بالرغبة. ثم دخلا في نوبة قبلات حارة، قبل أن يجذبا بعضهما ويستلقيا على الكنبة، وقد أيقن من استرسالها في اللذة.

خرج من شقتها عند التاسعة مساءً مثقلاً بتأنيب ضميره؛ شعور الذنب أنساه أنها هي من أغرته أصلًا، وأنه حاول تجنّبها رغم رسائلها الصريحة ورغبتها في حرف مسار العلاقة. في البداية قرر أن يقطع التواصل معها نهائيًا، لكن مشاعر التعاطف مع تجربتها في الزواج جعلته يرد على اتصالها الهاتفي بعد ثلاثة أيام.

في مكالماتهما السابقة اعتادت أن تسبق اسمه بكلمة "أستاذ" أما هذه المرة فقد استبدلتها بكلمة "حبيبي".

- نعم أسمعك.

ضحكت ثم قالت بدلال:

- خوفتني عليك.

حاولت إخراجه من الحديث الرسمي، لكنه تعمد إعادتها إلى الحديث المنضبط. أجاب:

- أنا بخير، بماذا تأمرين؟
- لا شيء... سلامتك. فقط أريد أن أراك، اشتقت إليك. أمي لم تعد من بيت خالتي بعد، ما رأيك أن تزورني اليوم لنناقش دراسة جدوى المشروع؟ لم تطلع عليها المرة السابقة.
- ردّ متحفظًا: أحضريها معك إلى المركز.
- قالت بإصرار: لا، سأنتظرك في الشقة الساعة الرابعة عصرًا.

تردد خليل قبل أن يذهب إلى شقتها فهو يعرف الآن الغرض من اللقاء. حاول

أن يبرر لنفسه بأن زواجه بها سيكفّر عن خطئه، وسيعوّضها عن بؤس حياتها السابقة، لكنه عاد ليسائل نفسه: ولماذا يرتبط بامرأة لا يعرف صدق ما تقوله؟ في النهاية انتصر صوت الإغواء، فوجد نفسه عند الثالثة عصرًا يقود سيارته نحو شقتها. كان ذلك بداية سلسلة لقاءات غرامية عديدة.

في صباح أحد الأيام، فوجئ بزيارة رجل غريب إلى مركز التدريب الذي يعمل فيه. كان رجلاً طويل القامة، حاد النظرات، يرتدي بدلة رسمية بلا ربطة عنق، وجزمة لامعة، وحليق الذقن. يتوزع شعره المجعد على صلعته السمراء، وتحيط بعينيه نظارة شبه مخروطية. تصافحا، وأثناء تشابك الأيدي استهل الرجل الحديث:

- معك عبد الوارث، أحد المعجبين بكتاباتك الصحفية.
- أهلا وسهلا تشرفنا.

جلس الرجل واضعًا ساقًا على الأخرى وقال:

- أتابع ما تنشره على وسائل التواصل، وأقرأ لك باستمرار. بصراحة، أنت شاب مبدع ونشيط.
- شكرا لك. هذا لطف منك.
- أنت مثال رائع للشاب اليمني النبيل والصامد.
- كل واحد منا يكافح في هذا البلد بطريقته.
- صدقت. أنت مطلع على ما يجري للبلد، وعلى حجم التآمر عليه. بالمناسبة، نسيت أن أعرّفك أكثر: أنا أعمل في وزارة الداخلية...

عمل إداري فقط، لا تخف. (وضحك)

بادله خليل الضحك وقال:

- ولمَ الخوف؟ أنا مواطن صالح.
- نحسبك كذلك. لكننا نريد منك المزيد... ليس من أجلنا، بل من أجل الوطن. تذكر المشردين، أسر الشهداء، الأطفال، والنساء. ألا يستحقون أن ننحاز إليهم؟
- الوطنية أصبحت عبئًا يا فندم، حين يكافح الشعب ويعاني، بينما المسؤولون هم المستفيدون باسم الوطنية، سواء كانوا هنا أو هناك.
- معاناة الناس جزء من الحصار المفروض عليهم.
- يشعلون الحروب ثم يدعون الكفاح بينما الناس هم من يكافحون في سبيل الحصول على الرغيف.
- انحيازك للناس يذكرني بشبابي. على كل حال، لقد درست وضعك... أعني وطنيتك ونبلك وشهامتك. ووجدنا أن سفرياتك إلى المحافظات ضمن برامج الإغاثة لا تثير انتباه أحد. لذا قررنا أن نكلفك بمهمة صغيرة في سفرك القادم: رصد بعض المواقع. سنمدك بالمزيد من التفاصيل، ونحن واثقون من وطنيتك.

رد خليل بصرامة:

- مستحيل. أنا موظف مدني، مهمتي تقديم العون للناس فقط. أعتذر، لقد جئت إلى الشخص الخطأ.

ردّ الرجل بابتسامة مريبة:

- لا، لا... ستتعاون. سأمنحك ثلاثة أيام للتفكير. بالمناسبة، نحن نعلم عنك أكثر مما تعلم عن نفسك. سأتواصل معك عبر الإنترنت... ابقَ متصلًا.

أنهى خليل الحديث قائلًا:

- الله معك. أرجو ألا تتعب نفسك.

لم يفهم خليل مغزى التهديد، وعدّه مجرد أسلوب مخابراتي لإثارة الخوف. في اليوم نفسه حاول الاتصال بخديجة كعادته، لكن هاتفها كان مغلقًا. عاد مساءً إلى البيت غير مكترث بلقائه بالضابط عبد الوارث، ثم فتح حسابه على فيسبوك ليجد رسائل واردة من حساب مجهول. تبيّن سريعًا أنها من الضابط نفسه. بعد التحية سأله عن قراره، فاعتذر خليل مجددًا بلطف، مصرًّا على موقفه الرافض للحروب. جاءه رد عبد الوارث سريعًا وحادًّا:

- ستتعاون معنا غصبًا عنك. هل تعرف خديجة يا مدعي المبادئ؟

في البداية ظن خليل أن خديجة خُطفت، وأن الضابط يساومه للإفراج عنها، خاصة أنها لم ترد على اتصالاته. أجاب بقلق:

- نعم، أعرفها بنت مسكينة ومكافحة. أرجوا ألا تستعملها وسيلة ابتزاز.

رد الضابط برسالة صعقت خليل، وأثارت فيه الرغبة في الانتقام وكره كل من يقول إنه صادق أو بائس:

- مبادئك سمحت لك أن تستغل الفتاة جنسيًا. لدينا مقاطع فيديو، وستصل إليك إحداها. نسخة أخرى سترسل إلى الكابتن الطيار بعد ساعة، ليرى من السماء ما يحدث على الأرض.

وصله مقطع فيديو بالفعل، فأدرك خليل حينها أن خديجة لم تكن سوى فخ، وأن قصتها عن زواجها البائس محض كذب، وأن الغرفة الممتلئة بالأثاث كانت تخفي كاميرات مزروعة في أكثر من زاوية. عندها أيقن أن لا مهرب له، فقبل تنفيذ المهمة قبل أن تنقضي المهلة. لاحقًا قال إنه بحث عن خديجة ليقتلها لكنه لم يجدها.

- قد تكون هي الأخرى وقعت تحت الابتزاز أو أُجبرت على ذلك. البلاء الذي حل بالناس يدعو للتماس الأعذار لهم.
- لم تعد تعنيه الأسباب وإنما النتائج.
- معك حق. نحن البشر نتخلى عن قيمنا تبعًا لأولوياتنا، وكأن الأهداف هي من تحدد المبادئ لا العكس.
- صحيح، أو بشكل أدق الرغبات هي التي تحدد المبادئ.
- ليست الرغبات سوى صورة متطورة من الأهداف. مسكين خليل. كيف اعتُقل إذن؟ وماذا عن موقف والده من كل هذا؟
- والده يعمل في شركة طيران دولية ويعيش خارج البلد، ولا يعرف الظروف التي دفعت ابنه للتورط مع المخابرات. لعله يظن أن ما

جرى له مجرد تلفيق. أما خليل فبعد أن بدأ بتنفيذ المهام بتصوير ورصد المواقع تحت غطاء العمل الصحفي والإغاثي، كُشف أمره حين ضبط وهو يوثق أحد المعسكرات. بفحص هاتفه عُثر على الصور والمحادثات مع الضابط عبد الوارث، فحوِّل على الفور إلى السجن... ثم إلى هنا.

❊ ❊ ❊

١٩

لا أدري كيف طفت صورة معمر بحالته التي عاد بها بعد غياب دام عامًا، بثوبٍ تغشاه البقع وتخترقه الثقوب. كان جسده المتسخ ولحيته الكثّة وملابسه الممزقة صورة مطابقة لحالته العقلية. وصل إلى القرية برفقة شخصٍ قال إنه رفيقه، وقد عبر معه الحدود إلى السعودية بحثًا عن عمل. في ذلك اليوم تجمهر الناس لمشاهدة معمر، الذي رفض دخول البيت؛ إذ بدا أنه قد مرّ بتجربة مريرة داخل الزنازين أفقدته الثقة بالجدران، فآثر العراء. جلس على الأرض مطأطئ الرأس، مثنيًا ساقيه تحته، ينكش التربة بعودٍ يابس صغير، ويتمتم بكلمات يبرّر فيها لنفسه أنّه لا علاقة له بشيء.

في الأثناء، كان رفيقه يشرح للمحتشدين قصة غياب معمر والتعذيب الذي تعرض له داخل السجون السعودية، بعد أن أُلقي القبض عليهما أثناء محاولة التسلل إلى إحدى المدن الحدودية بحثًا عن عمل. لكن دخولهم صادف توتراتٍ عسكرية شهدتها الحدود، ما جعلهم موضع شكّ بأنهم عناصر مقاتلة، وهو ما عرضهم للسجن والتعذيب.

أما العم علي فقد رأيته يومها كما لم أره من قبل؛ بهيئة لم أعهدها. كانت مصائب مرام وعمار وخالد ومعمر تحيط به من كل جانب، فيما هو عاجز عن مواجهتها. هكذا بدا والدكِ يومها بعد تضارب الأنباء حول مصير خالد:

رجلٌ يميل إلى الشرود والصمت.

هذا هو البلد إذن؛ بلدٌ تتردّى قصصه كل يوم، ويغدو كل شيء فيه موجعًا. وهذه كانت دوافعي للذهاب بعيدًا وتركِكِ وحيدة. قال عمار قبل رحيله إن اليمنيين لن يتعذبوا في الآخرة، لأنهم قد نالوا جزاءهم في الدنيا. أما نصيبي الشخصي من العذاب، فلا يبدو أنه قد اكتمل بما عشته من ويلات الحرب وأهوال المعركة، إذ قد أُبعث على برزخ فراقكِ مرة أخرى، أو ألقى خطيئة رحيلي في محشرٍ جحيمه البقاء معزولًا.

أعود إلى اليوم الذي رجع فيه معمر. كان ذلك قبل التحاقي بالجبهة. رأيت الناس متجمعين حوله، ولكل واحدٍ منهم قصة معاناة سببتها الحرب التي عبثت بملامحهم على طريقتها الخاصة.

- لا حول ولا قوة الا بالله.

ذلك ما استطاع أبي قوله يومها، ليثني عليه والدكِ بتمتمة مطابقة، ثم تنسحب حالة الاستسلام الروحي التي شعرا بها إلى أوساط الهمهمات الخاشعة للمحيطين، وسط ضحكات الأطفال الساخرة من حركات معمر.

❊ ❊ ❊

٢٠

ركلتني الحياة بكل ما أوتيت من قوة، أيّامًا بعد أيّام والمصائب تضيق عليّ، بينما الأيّام تبتلع الأفق أمامي مثل أناكوندا استوائية. عصارة انتظار مميتة كانت تسحب سنوات عمري إليها. جرّبت تفادي خطورة أن يتوقف قلبي وأنا محشور بين ضلعي البطالة والعوز، إلّا أنّ كل حيل النجاة كُشفت قبل أن تدخل الحرب على الخط وتسحق المستقبل الذي يفترس ضحاياه الكسالى ببطء ومعهم جميع اللاعبين. وأثناء ما أخذت الحرب تهيّئ نفسها لاقتحام مسار الحياة المنتهي حتمًا، اعتبرتُ فضولها عدالةً إلهية ستساوي بين مصير المواطن المحروم الضعيف، وبين خاتمة المسؤول الشره للسرقة والفساد. ساورني يقين بأن الحرب تُفاقم الظلم، ويتناسل إلى حواضنها من الفاسدين قتلة وناهبون.

بوجهين أطلت على خيالي الحرب، وبوجه واحد رأيتها وهي تعربد وتمزّق وتخنق وتلتهم وتجوع وتميت وتشرد، وكأنّ ما كُشف لي منها في الخيال كان أذرعها لا وجهها. خلال الفترة التي قامت فيها الحرب كنتُ- كما تعرفين- أتخبّط في قفار الحياة، وما إن وطّنت الحرب المنسية طعنتها في صدر الأيّام، حتى أخذت المسالك الضائعة تضيق أكثر، وصارت القفار تتشعّب أمامي إلى فيافٍ وبرارٍ مأهولة بالضباع والثعابين. أصبحت عاجزًا عن العودة وعن

المواصلة أيضًا، كنتُ حبيس الأرض المخاصمة لترسيمات الحدود والخرائط، كما لو أنّي أقف مكرهًا في صفّ التيه العمد.

حاولت تجنّب الانخراط في الحرب حتى لا أُجازف بعمري ولا أخسر أحدكم. بتُّ مثل الأعمى أتحسّس المنقذ بمدّ يدي لالتقاط البوصلة، حتى لو كان معدنها من جمر. ما من بُدّ لإنقاذ نفسي من فقر الحرب المتصعلكة في الخلاء إلّا بالانضمام لركب العصابة والإغارة في سبيل القوت المرمي وسط لهيب المنايا، حتى ألتقط أنفاسي من جديد. غير أنّ طموحي كان أصغر من هدف عروة بن الورد في إعانة الفقراء، فقد كنتُ أنا الفقير والمتشرّد والمتقطّع في ذات الوقت، أحمل ألقاب المعاناة والقبح كلّها فوق جبيني الذي شرخته بؤس الحظوظ الإجبارية.

بدأتُ– كما تعلمين– أتردّد على مجلس عمّار الذي حوّلته هو الآخر الظروف الحتمية إلى استلام ابن عمّه عبد المجيد. لهفة قديمة أعادتني إليه، وشوق عابر دفعني لقصده، مع أنّ دخوله كان قد أصبح عندي مريبًا وذلك من يوم عهدته التقلبات إلى استلام معمر الذي غيّر طبيعة الحياة المألوفة فيه بوجود عمّار وخالد، وبمطالعة الكتب والمجلّات وإثراء النقاشات الفكرية والثورية، مرورًا بشهادته الرمزية على النهاية المأساوية لقصة خالد وريناد ومرام، حتى إنّ المكان بات وكأنّه يتحرّش بذاكرتي عن بدايات القصة وتفاصيل العناد والشغف والمكابرة والتعلّق. تلك الملامح التي تعدّ نفسها بمشقة لأن تتحوّل خلال زمن قياسي إلى حكاية حبّ ناجحة وخالدة، غير أنّها بالغت في

التمرينات لتواجه بالنهاية خصمًا فعل بها ما تفعله الذبابة بالفيل.

كان عبد المجيد أحد وكلاء تجار الحرب في مهمة الحشد للفناء، عزرائيل بجلباب جبريل، يقدّم للناس موتهم الضروري بطبق الوعود الإلهية التي تكبر قدرته على صكّ وعد شهادة آجلة لا تحتوي على زمن للاستحقاق. لم تستطع أفكار عبد المجيد إغرائي بأن أجلب عليكِ ضرةً من الحور العين بالقدر نفسه الذي كانت تدغدغ به عواطف صغار السن. كنتُ قد تجاوزت المراهقة الفكرية وبات الجهل يحتضر في عقلي مع مرور العمر، أمّا أولئك اليافعون فوساوس عبد المجيد كانت تضاجع خلايا أدمغتهم بسادية حسبتها شَبَقًا في قعر الجحيم.

أن يعود أكثر من شخص من جبهات القتال بغنيمة آنية القيمة والسداد، أكثر إغراءً من أن يطمح لمواعدة فتاة داخل ضريح على مرأى من الأرواح المحتشدة وسط مقبرة مقفرة. هذا ما حمسني للالتحاق بالحرب: خبر عودة جلال برشاش آلي باعه بمبلغ ستة آلاف دولار. أمّا خطب عبد المجيد الخشنة ووعوده المائعة فلا يمكن أن يضحك بها على تجاربي ووطنيتي. أخبُر النبرات المزيفة جيّدًا، وأُخرج بسلاسة التناقضات المغشوشة من بين الأقوال الشاقة على الفعل. لكم هو محرج أن نستغل الله والوطن في تسويقنا لمشاريعنا مع الموت والدمار! من أجل ماذا تنازلنا عن القداسة وعن ماء الوجه معًا؟ ولماذا جئنا بعدها ننفي الخسارة بخطاب منمّق عن الكرامة وعن دين فقدنا به ما تبقّى من وجوهنا المتصحّرة ومن أطلال عرش الرحمن؟!

اضطررت بعدها إلى ارتياد مجلس عبد المجيد لأني كنت بحاجة إلى من يدلني على طريق الغنيمة المحاطة بالنار. كنتِ أول المتوجّسين من اعتيادي على الذهاب إلى هناك. القصص المتسلسلة بالرعب والوجع والرهبة كانت تبدأ في العادة باسم عبد المجيد، ولذا كنتِ تفترضين أنتِ وأمي أنّه خطّ بداية الرعب ومحور المأساة، غير أنّ تبريراتي عن الرواح والغدو قد استعانت بعذر الاعتياد على المكان لا أكثر.

كنت أمام قرارين إذًا: إمّا البقاء بائسًا أو الالتحاق بالحرب. وكان قرار الانضمام إلى مصيبة الحرب أكثر رحابة؛ لقبوله الانشطار إلى قدرين: حظّ الغنائم، ونصيب الموت على تخوم البؤس والشقاء. تباينت بوضوح أمامي مأساة البقاء على كنف الفقر والمجاعة، مع أهوال المخاطرة بروحي من أجل قضاء التزامات الرجولة وسداد فاتورة الواجبات. انتقيت الخسارة الأقل وضوحًا التي راعت في مظهرها الغموض، عسى أن أتماهى في انثناءات جلبابها الرمادي عندما يحدّق الرعب باحثًا عن طريدته التي اشتهى الفزع الشاخص موتها الواضح، وعذابها الجلي.

مرّت أيّام عزمي السرية سريعة، وجاءت أخيرًا اللحظات التي تحتم عليّ مجاهرتكم بما رجّحته ذائقتي. لم أجد خطة كفؤة لقول تلك التفاهة، ولا مبرّرًا يستوعبه إيمانكم بأرزاق الله، مثل ذلك الذي أعاد على فهمي شرح الحياة الكريمة، وتفاصيل العمر المتوقف، وخطوات انتظار الموت مقابل التنازل عن غاية سامية، ومعنى الخسارات والانتكاسات دون أن يؤخذ

بالاعتبار ثوابت الأرزاق والآجال التي تملكها السماء حصرًا.

فكّرت أن أخبر أبي أوّلًا لعلّه يقدّر تفكيري الرجولي الباحث عن معناه داخل قواميس الحرب الرثّة، إلّا أنّي تراجعت في اللحظات الأخيرة عندما خطرت على بالي فكرة أن أكلم والدكِ، وهو سيتكفّل بالتوسّط لي عندكِ وعند والديَّ بالذهاب، كونه أكثر من يناهض تقاعس تعاملي مع خشونة الحياة.

هل مرّ عليكِ وتوقعتِ– ولو بعد مضي زمن– الحيرة التي نقب مشيها الجلف في حقل دماغي عن سبب اختياري لإخبارك أنتِ أوّلًا؟ أم إنّ عاطفتكِ المشبوهة فارة من وجه خاطرة تقديري لكِ؟ سأقول لكِ الإجابة مضطرًا ليس إلّا! سأقول لكِ لأن ما من ملامح لكِ أمامي أرى وقع عتابي عليها، ولا صوت معاق لكِ تكسره التبريرات فيدخل إلى أذني جاهزًا وقد أصبح نشارة رطبة. سأقول لأنه لم يعد من جدوى للتأخير بدافع اختبار المحبة، خاصة وقد أصبح العمر مثل طُعم خائف– على صنارة الحرب– من أن يحين وقت جوع الحيتان غير المؤقت.

أخبرتكِ أوّلًا وذلك اتقاءً لشبهات الخيانة، واستبراءً أمام مشاعر إخلاصي لكِ– أنتِ مقدّمة وفائي وخاتمته– وحتى لا أحسب نفسي متمردًا، أو تظنيني مستغنيًا عن نصف تفكيري، فتنشغل مساوئ شكوك عن تقييم قراري الخطر بتقييم محبتي.

كعادتي أحببت بإتقان، وسددت جميع الثغرات، لو أنّي لم أغفل عن خازوق

الفراق مفتوحًا. من الآن إذًا ستكون هذه هي مهمتكِ الوحيدة: أن ترمّمي سهوتي اليتيمة، ثم تستأنفي استراحة شوقكِ ولهفتكِ بانتظار أن نسكن معًا وحيدين داخل بيت بنيناه بشقاء محبتنا المدخر كاملًا، دون أن نضطر لاقتراض التصرّع أو التنازل لسلف المنّ على بعضنا.

ردّة فعلكِ حينها، بموازاة مشاعري نحوكِ، جعلتني أعيد الكرّة مع التردّد من البداية، غير أنّ الحيرة الارتدادية أنتجتها خشيتكِ عليّ بنكهة مختلفة، كما لو أنّها تلافت أخطاء البدايات. راق لي انسجامها مع ذائقتي، وأخذ توقّف خطوات التردّد المستحدث في عقلي يزعج لذّة اندماجي من دغدغة أصابعكِ المتحمّلة وزن راقصة باليه. كنتِ على قدر المحبة، وبذلتِ كل ما بوسعكِ حتى تُنقذيني من القرار. أجَدتِ إتقان لغة المشاعر، لكنّكِ كنتِ كالتي تواجه إصرارًا كبيرًا، فتحوّلت لهجتكِ من المساومة العاطفية إلى التفاوض على تقديم ما يحلّ إشكالية العوز والحاجة مقابل التراجع عن قرار دخول الحرب. عرضتِ عليّ أن أبيع ذهبكِ وأتدبّر حالي بقيمته.

لا أدري لماذا أضحك عندما أسترجع هذا الموقف؟ ما أجمل الكرم الذي يكبر ثمنه! كنتِ تملكين الكرم وحسب، أمّا الصيغة عيار واحد وعشرون وبوزن سبعة غرامات فإنها لا تُشاهد فوق طاولة التفاوض على الحرب والسلم والحياة والموت والظروف. الطاولة التي لم يحسم ساسة العالم إلى الآن– مع كل هذا القتل والدمار– موقفهم من شكلها: دائرية أم مستطيلة؟ ثم مواضيعها؛ أمّا نتائجها فتلك إرادة أخرى لا تشبه عطاءكِ.

تكرار طرحي للموضوع على مدار أيّام جعلني كمن يحرث في البحر. صارحتُ بعدها أبي وأمي. كان لأبي موقف متردّد؛ أمّا أمي فمانعت تلقائيًا بعينيها قبل فمها، أصبحت كالعاجزة عن شرح أمومتها، واختصرت حنانها وعطفها بعبارة: "سأميت نفسي إن ذهبت". توالت الأيّام وأتى ترويض أبي لأمومة والدتي بنتيجة؛ خضعت لخيار أن تُبقي على حياتها حال ذهابي، واحتفظت بالمقابل بدموعها كحقّ تعبّر به عن مشاعرها. أمّا أنتِ فكنتِ ممانعة وقاسية، تهدّدين بأنكِ ستذهبين إن ذهبت. وجدتُ أن طرح الموضوع للنقاش يزيد التعقيدات ليس إلّا، بينما كان هناك اختراق جيّد أحدثه أبي في جدار تصميم أمي وعليّ استغلاله. ولذا اتّبعت معكم في الأسبوع الأخير أسلوب المناورة. قلتُ لكم: لقد عدلتُ عن قراري، في حين أن عبد المجيد كان قد سمّى اليوم الذي سنذهب فيه.

طمعتُ في الحصول على لحظات أخيرة تكون عادية لا أكثر. عندما تلازمنا النكبات يصبح العادي مطلبًا غير عادي، كأنّه تبذير في الأمنيات زائد عن الحاجة المقيّدة للتكيّف مع الظروف. وتشعر أيضًا، وأنت تنادي به من وسط المصائب، أنّك تخرق مبدأ التعايش.

أسبوع واحد فقط. أسرفتُ فيه بالفرحة وبالتعلّق حتى أتخمتكِ سعادة. وجاءت الليلة الأخيرة التي عليّ أن أجمع فيها مقاديري المنفلتة، وأستعين بالصواع المسروق عمدًا من الأسبوع المتنكّر بقناع البهجة لكي أُعير لكِ ولأمي كروب الفراق.

انتظرتُ إلى أن أكملنا تناول العشاء ثم قلتُ:

- سأذهب غدا إلى الجبهة. لن يطول مكوثي هناك عن أسبوع.

تعثّرت أمي بوقفتها، ثم قالت بقنوط:

- قلت إنك الغيت الفكرة!

- نعم، يا أمّي، كنتُ قد ألغيتها، لكن في الأخير أنتِ أكثر من يؤمن بأن الأعمار بيد الله. انظري إلى حال جلال ماذا حصل له؟ فقط غاب أسبوعًا، وعليه الآن أن يرتاح لأعوام. ما في شيء يخوّف، كلها أسبوع، وعلى رأي المثل: "لو همّينا العصافير ما زرعنا الدخن".

في حين انسحبتِ أنتِ بصمت نحو الغرفة، كانت أمي تتأهّب لجولة ردّ ثانية، إلا أن أبي كان لها بالمرصاد قائلاً:

- يا حجة الله الحامي. لا تضيقي على الولد. سيبي له حاله.

أخذتُ معي التوتر ولحقتُ بكِ. دخلتُ عليكِ وأنتِ تبكين، حاولت ملاطفتكِ حتى أخفّف من وجعكِ. لم أجد غير التغزل بكِ لتخرجي من حالة الضيق وتدخلين إلى وضع النسيان. طمأنتكِ قائلاً:

لي فيكِ حقّ لا تأخذه المسافات، ثقي بأن ما من شيء أقتسمكِ معه سوى غيرتي، فاستجمعي كل يقينكِ وضعيه داخل قلبكِ البلّوري. تعلمين أن رجلًا أخذتِ منه ممرّاته وطرقه لا يمكن له أن يعود إلا إليكِ. أعدكِ أن أخبئكِ بين أضلعي، يا نسمة الصباح التي أهدتني إيّاها ساعات السحر. اعبثي بكل

مشاعري كما عهدتكِ طفلة مدللة تهوين اللعب. ابعثيني في قلبكِ كل حين، فأنا منذ عرفتكِ لا أملّ التكرار. أحييني من جديد، واخلدي بذاكرتي إلى الأبد.

قلتِ لي يومًا: إن روحًا علِقت في شَرك العشق لا يمكن لها إلا أن تظل حبيسة. وقلتُ لكِ: ما كل المصائد تؤدي إلى السجون، فثمّة عروش من أقفاص.

أنتِ من رسم على وجداني وشم الحياة، ومن زرع في أعماقي بذور الوجود. ولما احتاج نباتي إلى الماء، أفضتِ عليه من غيم حنانك.

لكن كأن ما سكبته من غزل لم يملأ بعدُ ما أحدثه الهلع في داخلكِ. على مهل سحبتِ يديكِ من تحت خدّكِ ووضعتهما بجانبكِ كحقيبة أنهكتها الأسفار، ثم قلتِ:

- وكم ستبقى هناك؟

لم أدرك إن كان سؤالكِ استفسارًا أم استسلامًا لفجوة رعبكِ من رحيلي. بدا لي أن عليّ بذل المزيد لردم فوهة الخوف، فقلت:

- سأحاول الرجوع قريبًا. بمجرّد الحصول على السلاح سأعود. أنا مضطر إلى الرجوع، فأسطوانة أنفاسي معلّقة في قلبكِ.

ضحكتِ من قولي وقلتِ:

- يا لك من مجامل.

- لا أجاملكِ. تعلمين أنكِ أوكسجين بقائي الأوّل. أنا مدين لكِ

بشهيقي، بانبساطات قلبي، وبسريان دمي. منذ اللحظة التي رأيتكِ فيها، وأنا كلّما ابتعدت عنكِ أغمض عينيّ لأراكِ، يا سلوى، منقوشة على أجفاني.

كان لمشاعري ضجيج يكفي لردم كل حفرة خلّفها الخوف في بلد الحرب والفجائع، غير أن البوح وحده لا يُصلح كل شيء. اقتربت منكِ، وأمسكتُ يدكِ، وهمست:

- ما زلتِ قلقة عليّ؟ لستُ طفلًا.

ثم أمضيتُ على ما قلتُ بقبلة على يدكِ. قلتِ:

- قلقي لا ينمّ عن خوفي عليك، بل عن خوفي على حال عمّتي وعمّي، فمن سيكون لهما من دونك؟

إجابتكِ الدبلوماسية كانت مقنعة لولا أنّها توارت خلف ضحكتكِ الخجولة. رفعتُ يدكِ ثانية إلى فمي المنحني أصلًا، وقلت:

- لا عليكِ، سيكون الحال على ما يرام.

وحدث بعدها كل شيء.

❊ ❊ ❊

٢١

ما زلتُ أتذكر ذلك الصباح الذي لم أنم ليله. افتعلت النوم مثلكِ تمامًا. مع طلوع الفجر دبّت الحركة الاعتيادية في البيت، يبدأها والدي وهو ينادي: "قوموا للصلاة".

تواثبتُ ناهضًا لأوقظكِ من غيبوبة القلق، قلتُ همسًا:

- من سيتقدّم للوضوء: أنا أم أنتِ؟

سمحتِ لي بالتقدّم يومها، وتركتُ لكِ بعدها مجال الأسبقية مفتوحًا. كانت اللحظات تركض بحيوية الصباح الفريدة. لا أدري أيهما يسبق الآخر: الدقائق أم الثواني؟ الجميع كان يجري خلفي بسياط الفراق والقادم المبهم.

ها قد حان موعد الرحيل. انحنيتُ على رأس أمي وأنا أقول: "دعواتكِ". حاولتُ حبس دموعي، لكن للفراق فائضٌ من الغصّة يجرف معه الذكريات بقوة. انثنيتُ أمام أبي لأقبّل ركبته، وأخيرًا عانقتكِ. أحسستُ لذلك العناق نكهة خاصة؛ كأنني اكتشفت سرّ طاقة الاندماج من توليفة جسدينا وامتزاج أنفاسنا.

ماذا لو تأخرنا برهة؟ "لأذابكما الانصهار"، قال أحمد في السجن حين سردتُ له قصة وداعنا.

رحلتُ أخيرًا إلى مثوى المخاطر الأخير، محمولًا على أكتاف المجهول.

تشيّعني دعواتكم، وتنوح عليّ عيون الفراق، وتحيط تابوتي نظرات شفقة الجيران.

أخذت مراسيم الوداع تطول، وكأن اللحظات النشطة أصابها شلل مفاجئ. ودّعت الجميع على ضفاف نهر الدموع، ولفظت آخر أنفاس البقاء.

في طريق الذهاب كان يمر أمامي طابور ذكريات. أجول بنظري نحو الأماكن والمطارح والطرق التي توقّف كل شيء فيها لتأبيني، حتى أخجلني إطالة النظر إليها وهي تبادلني مشاعر حفظ الوفاء لعِشرتي.

هكذا رحلتُ عن موطني، نحو الوطن، الكنز، الذي يسلبه القراصنة في عرض البحر من غير أن يستبدلوا أذرعهم المقطوعة بأخرى معدنية، ولا أن يضطروا لحمل رايات سوداء، ولا أن تنفيهم أعمالهم إلى الجزر المقفرة.

❊ ❊ ❊

٢٢

اسمحي أن أرفق مع رسائل شوقي وحنيني خطبي ومواعظي، عساكِ تجدين ضالًا غيري ترشدينه بها. قولي لحمّاسهم، وطيشهم، وارتزاقهم، ولهفتهم إلى الرقص مع الموت في حلبة الحرب: لقد قال قبلكم قائل:

"كفى الوطن أن يبقى رايةً ونشيدًا وشعارًا على جبين جندي يضع قبعته تحت رأسه أثناء نومه، وما أطول رقادهم. آن الأوان أن يصبح لي الوطن كما للقراصنة: صندوقًا مليئًا بالمجوهرات؛ فإن أراه ياقوتًا براقًا خير من رؤيته وسادة تحت خدّ جندي كسول."

هكذا أقنعت نفسي وشحذت همّتي، حين قررت المضي في جعل الوطن كما هو للآخرين: مكسبًا ووظيفة. من يومها كان عليّ أن أكون قرصانًا أعور لا يرى إلا بعين مصلحته، ومن يومها أيضًا كان لا بد أن أنخرط ـ ولو متأخرًا ـ ضمن الشعب الانتهازي العظيم.

لكن متى كان الانتماء إلى الشعوب خيارًا اختياريًا وعلى مهل؟ ألم يكن عليّ أن أستدرك حماسي قبل أن ألحق بنصيبي من الوطن- الكنز؟

حتى لو حاول أحدهم إقناعكِ يا سلوى بتبريراته، وقوله:

أليست الأمم، كما الشعوب، تُسمى بأمم المظالم الكبرى، وقادتها هم عصابات السلب والبطش؟ أليس قدر الجماهير أن تشارك اسمها الفضفاض

ضحيةً واستعبادًا، بينما نصيب طائفة الحكّام أن تشارك لقبها في الرغد والترف؟

لن أكون بعد اليوم ضمن الحشود. سأختفي على عجل من أمام منصّات خطابات القادة وكرشهم المتدلّية. فبعد أن عثرت على صفر البداية الذي طالما أعياني البحث عنه في لانهائية الأعداد، لن أتخلّى مجددًا عن ضالتي.

قولي له: حتى هو كان قد عقد نيته على ظنّه، وكان يقول:

"سأبدأ كما بدأوا، أو كما قالوا إنهم بدأوا: محاربين بسطاء ممسكين بزناد بندقية عتيقة. إلى أن ارتقت بهم مبادئهم النبيلة مرتبة تجّار الحروب. وإلى أن رأيناهم أخيرًا يمسكون أوراق الخطابات في منصّات الخديعة، خلف كروشهم المنتفخة من أثر النضال، وإلى أن منحوا أنفسهم لقب باباوات الثورة الروحانيين."

لن يطول الأمد حتى أمنح ذاتي نسبًا روحانيًا، وأقهقه صامتًا من إغوائي لنفسي المسكينة، تلك التي ما زالت عالقة بين حشود الشعوب الهاتفة لأرباب الإطلالات الساخنة، المنبثقة من بين أكتاف حرس الشرف العريضة بما يكفي لحمل نجوم المجرة كلها، والصدور المتخمة بالنياشين، نياشين المحاباة المبتذلة وعهر القيم.

❊ ❊ ❊

٢٣

كان لا بد من المرور بصنعاء والتوقف فيها قبل أن نصل إلى بغيتنا. دخلت صنعاء لا أدري: أكنتُ فاتحًا، أم زائرًا، أم غازيًا، أم محاربًا غرضه الغنيمة وأمجاد ما بعد الحروب؟ كل ذلك كان يصدق عليّ، غير أنني كنت أليق فقط بالأنفال وترف الغد القريب.

دخلت صنعاء من بابها الشهير؛ مدينة الحرفة والصناعة، مدينة سام، وأول مدينة بعد العذاب والطوفان. وعلى ذكر الطوفان تساءلت: كم مرّ على آزال من غمر الماء؟ وكم احتاجت لتقوم من جديد؟ أيهما أغرق صنعاء أكثر: مطر السماء، أم سيول الحقد والطمع؟ وأيهما أوجعها أكثر: هيجان البحر، أم زبد أبناء الفرقة والحسد؟

ما أجمل الأسماء إذا ما ارتدتها مدينتي، وما أجمل صنعاء في فساتينها؛ ترتدي ما تختاره وكأنه خُلق لها من دون سواها، ثم لا تلبث أن تبدله بآخر فتغدو أجمل به. ما أروعها طائشة تلاحق أزياءها وأسماءها في أسواق صنعتها على ذائقة فتاة تنتمي إلى كل العصور.

للوهلة التي توغلت بنا السيارة في شوارعها وأحيائها لمستُ صنعاء الغريقة، لا صنعاء الثياب ولا الحلل. أجل، هناك عرفت صنعاء الوطن. ومع وحل الغرق عرفت حقيقتي.

أنا أنتمي إلى وطن يُباع فيه البنزين على بسطات الأرصفة بدلًا من الجرائد. أنتمي إلى وطن تُحشر فيه حياة الناس بغوغائية، غير أنها عشوائية جذّابة تتحكم بها العناية الإلهية. أنتمي إلى وطنٍ حتى مجانينه يهذون شعرًا إذا تمتموا. أنتمي إلى وطن تحرّكه أيادي اللاعبين كأحجار شطرنج، تتقاذفه يدان، مبعثرًا بين علمين ولونين، وكلّ شيء فيه يلتهم الآخر.

توقفنا في صنعاء لا لنرتاح، بل ريثما يكتمل نصاب الراحلين بحثًا عمّا لا يعرفونه. وما إن ودعت الشمس الحمراء قمريات بيوت المدينة حتى تذكرت قول الشاعر الفلسطيني تميم البرغوثي وهو يصف حوار الضوء مع نوافذ القدس:

"ونوافذ تعلو المساجد والكنائس
أمسكت بيد الصباح تريه كيف
النقش بالألوان فهو يقول لا بل هكذا
فتقول لا بل هكذا حتى إذا طال الخلاف
تقاسما فالصبح حرٌ خارج العتبات
لكن إن أراد دخولها فعليه أن يرضى
بحكم نوافذ الرحمان"

أما بيوت صنعاء جميعها فمقدّسة، ذاتُ قمريّات لا تُشاجر الضوء وحده، بل تُشاكس السماء أيضًا. وأنا منفيّ آخر، مثل شاعر فلسطين، أودّع مدينتي

بشمسٍ دامية لم تكن حرّةً خارج العتبات، بل نازفةً في عقر دارها من جور الهزيمة.

حلّ الظلام فرحلنا عن أرض صنعاء صفرَ الوجوه، كما رحلت الشمس عن سمائها حمراءَ الجبين. الألوان وحدها هي ما يميزنا عن بعضنا، وهي أيضًا مقياس خساراتنا، فيما المدينة تغلب الجميع.

كانت أنفاسي تتشبّث بأي سبب للبقاء، والرهبة تجتاحني كإعصار يلتهم ما أمامه. إنه غضب المشاعر وسخط النفس. أيُّ جشعٍ يجترّني إلى أعلى القمم ليركلني من هناك إلى قعرٍ لا يُرى؟ أيُّ طمع ينتزعني من بين الأنفاس التي لا أعيش إلا بها؟ إلى أيّ اتجاه يرجمُني الغيب؟ وكيف سيكون الغد؟

❊ ❊ ❊

٢٤

بعد نصف يوم وصلنا، أو أوصلونا، إلى أرض الجحيم. أحداث تلك الليلة لن تبرح مخيلتي ما حييت. عشت ليلةً ترقص فيها الأرواح على أزيز الرصاص ودويّ المدافع. سألت أحد المقاتلين إن كان الوضع سيبقى على هذا الحال دائمًا، وكأني أبحث عن تطمينٍ ينتشلني من رعب اللحظة. فأجاب:

- أحيانًا يتوقف إطلاق النار لساعات، وغالبًا يكون ذلك في النهار.

انتزعت رُبع تطمين، وتخلّيت عن عُمر. هذا ما استخلصته من جوابه.

في الليلة الأولى لم أكن على الخطوط الأمامية– وفق التعبيرات العسكرية– لكني شعرت أني أقف على خطّ الموت الذي لا يتاح غيره، وفق تعبيرات سوء الحظ. خُيّل إليّ أن تاريخًا قريبًا سيتخلّى عني، لأتحوّل إلى رقم فردي أو عشري في صحيفة يومية تخبر قراءها بعدد القتلى البارحة، رقمًا عابرًا يمرّ عليه الناس بعينٍ معتادة ثم ينسى.

قريبًا سأغدو اسمًا بلا روح، رقمًا بالخط الأحمر في جريدة تُلفّ بها سندويتشات مطاعم الوجبات السريعة، ويُلقى بقاياها في سلة قمامة أو على الرصيف، حتى ينتهي بي المطاف في مقلب حرقٍ أخير. كأن قدري أن ترافقني المخاطر حتى لو تحولتُ إلى حبرٍ على ورق.

مرّت عشرة أيام صدرت خلالها عشر صحف يومية، ولم أتحوّل بعد إلى رقم

أحمر، لكنني أيضًا لم أنم ولم أشعر بآدميتي، ولم أغنم شيئًا كما وعدتني شعارات القراصنة.

الحياة صعبة، وليست غالبًا جديرة بنا إلى الحد الذي يُقنع أعمارنا بالتخلي عنها. ومع ذلك، نهوى أن يرشقنا الغيب بقضاء يرفع عنا بعض هذا العبء. اعذريني، لا أقصد أن أُغرقك بتشاؤمي. فالأمل جميل أيضًا، لأنه يعني أن نحيا بانتظار مفاجأة قد يمنحنا إياها المستقبل في لحظة غير متوقعة.

في اليوم الحادي عشر من حرب الغنيمة والمجهول، وصلنا أمرٌ من المسؤول بالتقدم إلى الخطوط الأمامية. كان هو من يُصدر الأوامر إلينا، فنصغي له في تحدٍّ من آذاننا لأصوات الانفجارات. كان يفوقني عتادًا وذخيرة، لكنني كنت أنقصه عقيدة قتالية. لم أكن سوى محاربٍ غرضه التكسب، أما هو فيقاتل لعداوةٍ في صدره، وربما أيضًا لمكاسب أخرى تخصه.

تقدّمنا وفق الأوامر. بعد ساعاتٍ من الترقب وقعت علينا صخرة الغيب التي نستحقها، أو التي نحتاجها لنتحلّل بها من ثِقل ما نحمله. تمت السيطرة على موقعنا بالكامل. كانت الجثث المتفحّمة متناثرة من حولي، أما أنا ومقاتل آخر جُرحه بالغ لم أعرف بعده مصيره، فقد رمينا خلف كومة أحجار. وما هي إلا دقائق حتى صعدوا إلينا وأسرونا ونحن جريحان.

سُحبنا إلى سيارة رباعية الدفع، والشتائم تنهال علينا. كانوا يأمرون الأسير الآخر بالصعود رغم إصابته، قائلين بسخرية: "لماذا الآن لم تعد قادرًا على المشي!"

٢٥

بحسب قواعد حربنا اللاأخلاقية، لا يُطلع أي طرف الآخر على إحصائية دقيقة بالأسرى أو القتلى، ولا تُسلَّم الجثامين. لذا فإن من أُسر كمن قُتل. أيقنتُ أن يُزَفَّ خبر ارتقائي شهيدًا إلى أهلي، وأن يُنقل اسمي إلى الصحافة كرقم مجهول، وأن الطرف الآخر سيصرّح بأنه سيطر على الموقع وقتل من فيه.

حتى في موتي تتقاسمني مرادفات الفناء، فيما أحتفظ لنفسي بالنقيض. هي جدلية الموت والحياة: أنا حيّ، والجميع ينعت وفاتي بلقب يشتهيه. عندها أدركت كم نستحق أن نختار أسباب حتفنا التي تليق بنا، وأن ننتقي اسم موتٍ نصف به انقضاء أعمارنا بدل أن تُمنح خواتيمنا لتسميات يختارها غيرنا. عرفت أن الحرمان توءمي الوحيد حتى بعد موتي.

تخيّلت كيف سيستقبل أهلي الفاجعة. نظرت إليكِ يا سلوى، رأيَ العين لا خيالًا. أبصرتكِ تفُقين من غيبوبتك الأولى على غيبوبة جديدة بلسانٍ لا ينطق، تتقاذفكِ موجات الصدمة إلى أن تلقيكِ غريقة في أعماق الحسرة. في قلبكِ تكذيبٌ لموتي، وفي عينيكِ فزعٌ وعشقٌ ذبل فجأة وزمنٌ توقف. وعلى خدّكِ الشاحب تتدحرج دمعة جافة، ثم تسقط على الأرض لتبقى على حالها كصخرة شفّافة تتجمع إليها صور الباكيات في بيت العزاء.

ليتني قريبًا لأواسيكِ. ربما كان ليدي أثر السحر على مأساتكِ. عرفتُ أنكِ

حينها كنتِ تحتاجين إلى خفقان قلبي لتستفيقي من إغماء الفاجعة، وإلى نفسي لينساب إلى صدركِ نسيمُ عودة، وإلى حركة أطرافي ليسير عمركِ نحوي.

أعلم أنكِ تريننني روحًا صعدت إلى السماء، تطل بين حين وآخر من الغيوم مرتدية رداءً أبيض. أما أنا فأراكِ رائحة وردة لم يُبدّدها الحداد، تلك التي داعبت أنفي يوم عرسنا. أعلم أن النساء من حولكِ يلمزنكِ بنظرات الإشفاق ويقذفنكِ بأحاديث الرثاء: "مسكينة... يا حسرتاه على شبابها."

وأعلم أيضًا أن مهمة اختيار عريس جديد لك قد بدأت. سيقلن: "ومن غير ابن عمها حميد؟ إنه أنسب لها." فتقاطعهن أخرى: "لا، صالح أرمل القرية الذي فقد زوجته منذ عام، يليق بها أكثر." لكن ثقتي بكِ أنكِ لن تصغي لأحد، وستظلين تُكذّبين قلبكِ حتى يأتيكِ اليقين.

هكذا نودّع أمواتنا: بندب، وولولة، ووليمة، وبيت عزاء، ثم خطبة عرسٍ لمن تبقوا أحياء، وبجملة شعبية تلخص كل هذا الويل بمن قبروه.

صبرًا أمي، سأعود في أول رحلة فرج، فلا تجزعي. أعلم أنكِ أصدق الباكيات. امسحي دموعكِ بمنديل الاحتساب، كوني صلبة كصخر بلادنا، عامرة بالإيمان كرحاب مقدّسة في أرضنا.

أبي، أنت الرجل. دع من حولك ينهلون من ينبوع عزيمتك. يا مصدر قوتي ونواة ثباتي، كن كما عهدتك.

٢٦

أبتعد عن قبضة سجّاني، وأتسلّل من عزلتي إليكِ يا سلوى، لأطمئن إحساسكِ المصدّق لحياتي رغم تكذيب موتي. في كل الأحوال أنتِ نورٌ أفلت من عتمة الزنزانة ليُشعل قناديل الحب داخلي. استعدي منذ الآن لتُطلّي من شرفة ذاكرتي، مرتديةً ضوءكِ الهارب، وحاملةً بيديكِ منديل مقتلي الأحمر لتلوّحي لحشود مشاعري بخلود عشقكِ. كوني في كل ليلة أنثى بين ذراعي مساء الغياب والمجهول. احضري بلا موعد إلى طاولة اللهفة، بكل ما أوتيتِ من إغراء. ازرعي في حديقة الشوق الخلفية نرجسًا من أجل مزهرية يقين العودة. تمردت على الموت طمعًا في حياةٍ أرعاها في ظل ثورة وصالكِ القادمة، وانكشفت ستائر المستحيل عن ممكنٍ حافل بكِ.

مرّ عامان منذ اعتدت أن أستيقظ على صوت سجاني. عامان على قيدٍ وساقٍ وجرحٍ وعذابٍ ووحدةٍ وصلابةٍ غليظة، على جوابٍ بنعم لكل ما أعرفه وما أجهله، وعلى دمعةٍ بلا نحيب.

ما أغرب طقس هذا المكان! ترتفع فيه درجة الحرارة إلى حدّ الغليان، وتنخفض الإنسانية إلى ما دون الصفر. بمزاج سجّاني غير المؤقت أُساق إلى غرفة التحقيق المزدحمة بأحدث صرعات التعذيب النفسي والجسدي، لأقابل الرجل المولع بمتابعة جديد "موضات" العذاب، وآخر صيحات

التحقيق الكوني.

يُقاد جسدي كل مرة معصوب العينين، موثق الرباط، مجترًّا بين السجانين، حتى أصل إلى المحقق اللئيم. هناك يلبسني ألوان العذاب، ويدللني بلفظٍ لا صلة له باسمي: "خليك متعاون مع نفسك يا حلو."

مع كل جلسة تحقيق تنهمر عليّ أسئلة يكررها المحقق أبو صقر، ذو القامة الطويلة والبشرة السمراء والشارب الكثيف والعينين الجاحظتين، كما وصفه أحد الحراس وهو يخوفني به أول مرة. في كل مرة يبدأ التحقيق وكأنها أول مواجهة: "ما اسمك؟ من أين أنت؟ هل أنت متزوج؟ ما هي صفتك بين أعدائنا؟ لماذا تضمر لنا العداوة؟ من دفعك إلى هذا؟ ومن تعرف من أولئك؟!"

أسئلة لا أعرف لها جوابًا، إلا أنني كنت أجيب، فقط حتى لا أبدو وكأني أستفزه. ولو علم أبو صقر أني طفيلي حربٍ لم يسعَ إلا لغنيمةٍ تنجيه من فقره، وأن الشيء الوحيد الذي كنت أعرفه بحق هو قيمة الرشاش الذي سعيت لاغتنامه... لضحك من كل إجاباتي التي تحاول إرضاء فضوله.

بعد ساعات، أُعاد إلى الزنزانة وقد ارتديتُ جميع ألوان التعذيب. أحاول بعد كل رجوع تقليص جسدي، فأضع رأسي بين كفيّ ككرة بولينج، غير أني لا أستطيع أن أقذف بها قضبان الزنزانة، لعلّي أنزلق إلى الغياب متواريًا عن كل هذا الألم.

٢٧

في ذلك اليوم الذي وصلني فيه خبرك، رُميت في الزنزانة الانفرادية لشهر كامل.

تتحالف ضدي الأقدار مع أقبية السجون بتواطؤ من غدركِ، لتشتعل ضدكم انتفاضات أخرى لم تكن في حسبانكم جميعًا.

ما كنت أريده ذلك اليوم هو أن أُلقى في منفى، لا في مجرد زنزانة لوقت محدود. فالعذاب يخطئ أحيانًا في اختيار قسوته تجاهنا؛ فيلقي إلينا، عن غير قصد، طوق نجاة نتمسك به حتى قدوم قارب الحظ الجيد.

مضى عليّ منذ بدأت أكتب إليكِ نصف عام، ومضى منذ آخر مرة لامست فيها الورق نحو شهر. اليوم هو العاشر من فبراير ٢٠١٨م، كما كُتب في مذكرة تحويلي من الانفرادية إلى العمومية، بعد أن أودعت الأولى شهرًا كاملًا بسبب اختلائي بسجين جديد لساعة واحدة، عُدّت اشتباهًا في تبادل معلومات سرية.

في آخر يوم لي في الانفرادية، انشغلت عن مكاتبتكِ برؤية عبدالعليم، ابن الحاج صالح إمام مسجد القرية، وقد جِيء به هو الآخر إلى المعتقل.

أيقظت دهشة اللقاء الأولى حواسي للتأكد أنه هو بالفعل. شعرت بدفء وطمأنينة لم أعرفهما منذ أقصت الغربة الوجوه المألوفة عن مقاهي حياتي

الريفية. عبدالعليم أيضًا تفاجأ لرؤيتي، ولم يصدق بدايةً أن من يقف أمامه هو ابن قريته "الشهيد حامد". ظنني شبيهًا به. حدّق طويلًا في وجهي من غير أن تستفزني نظراته. لعلّ ما مرّ به من مآسٍ جعل الكوابيس تختلط عنده بالحقائق، أو ربما ظن أنه قد مات هو الآخر وأُدخل الجحيم.

قطعت شكوكه بأن ناديته: "عبد العليم". التفت وقال:

- حامد! مش إلا مت!
- نعم، مت وأنت أيضا، أم تتوقع نفسك حيًا ترزق؟
- أنا أتنفس ما شاء الله.

تقدم نحوي وتقدمت نحوه. التقينا في المنتصف وتعانقنا طويلًا بين أكتاف المساجين، لنمنح الجحيم حميمية لم يعتدها.

أتدرين ماذا يعني لو صحّ الخبر الذي جاء به عبدالعليم؟ ربما سأقتلكِ، وربما أقتل نفسي، وربما أقتلنا معًا.

لم أفهم غرابة تصرفاته إلا لاحقًا. فما إن انتهينا من السلام وتبادل كلمات الترحيب، حتى بدا لي على غير طبيعته. ذاك الشاب الذي طالما أبسط الحوارات بفواصل من النكات، وأغرق جلساته بخفة الطرائف والتندر، بدا مرتبكًا على نحوٍ أثار توجسي.

ماذا عن وعدك وانتظارك لعودتي؟

سيطر التلعثم على حديثي معه. خشيت أن يكون ارتباكه لأنّه لا يريد صعقي

بخبر موت عزيز. فصرت ألحّ عليه بالأسئلة عنكِ، وعن أمي وأبي، وعن صادق وخالد وجميع الأقارب.

- أسألك بالله يا عبدالعليم، هل هم بخير؟
- نعم، كلهم بخير ويسلمون عليك. ما بك تُضخم الموقف هكذا؟ عليك أن تُسلّم للأقدار.
- من قال لك إنني ساخط على الأقدار؟ أنا ساخط من تهرّبك عن قول الحقيقة.
- لماذا لم تحاول أن توصل رسالة لأهلك أنك حي؟
- وهل يسمح هذا المكان برسالة، حتى ولو كانت نفسًا؟ ثم يا أخي، أردتهم أن يعيشوا جوّ عودتي من الجنة.
- بالله عليك! ألم تجد مفاجأة غير أن تباغتهم بعودتك من الجحيم؟

ازداد توتري. بدا واضحًا أنه يُخفي أمرًا جللًا، ويلقي باللوم عليّ ليُخفف من وقع الخبر.

- عبدالعليم، آخر قطرة صبر بداخلي جففها المحقق صقر، وآخر حفنة تقدير لقرابة أو صداقة بدّدتها الانفرادية.
- – واضح أنك جننت، لا داعي للشكوى.

كدت أن أهوي بقبضتي على وجهه لأفرط أسنانه التي فضحتها ضحكته القلقة. كنت في أقصى حالات الانفعال. لولا أن الحارس لم ينهِ الجلسة عند

تلك اللحظة، لربما أصابتني محاولة التخمين بشلل عقلي. لو علم عبدالعليم بما يدور في رأسي وأنا أعاني من تكتمه ثم تسنى له أن يدرك حالتي لرد بدلا عن إجابته تلك.

نطق أخيرًا:

- كنت في البلاد قبل شهر تقريبًا، وكان والدك يخطط لتزويج أخيك صادق بأرملتك سلوى.

فجأة تساقط عني كل شيء، وحيدًا ومنطويًا كشجرة تشرين، وجافًا كصحراء غير صالحة للحياة. يا أقداري المسعورة، ما هذا الفجور في الخصومة؟ ألم أتحلل من ذنب الرحيل الذي ارتكبه قلبي المنفي؟ ألم أُقدّم تصالحي مع الظنّ على حساب رضاي عن نفسي؟ مقابل ماذا إذًا كنت أدفع فاتورتكِ القاسية؟ لم أُسرف في التملص حتى أستحق عبء الدَّين، ولم أعلن العداء حين أفلتُّ من الموت. كانت صدفة لا أكثر. فلماذا تنتقمين مني بإفراط؟ وكأنكِ لستِ من أعانني على النجاة. أم أن نجاتي دُبرت لتكون مقدمة لعذاب أشد؟

❊ ❊ ❊

٢٨

كيف تطير هذه الأسئلة من رأسي وتعود دون أن تهزّ سكوني؟ ما هذا الصخب الساذج الذي لا يوقظ نوم أعضائي؟ من يحترم موتي المبعثر وهو يسلّم دفعته الأخيرة؟

اخرجوا ولو بقدر يسير من الأصالة، ولو بفتات من المروءة، حتى تجاملكم منيّتي بوصفي لكم أعداء. كي يقبل شريف من بعدي، له قلب كقلبي، منازلة جرمكم.

لكن لماذا أجلد ضمير الأقدار، وهي لم تمنحني يومًا محبّتها؟ لماذا، وهي التي قالت لي منذ أول يوم: "لن أساندك ضد الحياة، لأن من يختار الحياة هو أنا، فكيف أقف ضد ذائقتي!" لماذا لا يكون ذنبكِ أنتِ إذن يا سلوى؟ ولماذا لم تتعلمي من مخاصمة الأقدار درس الوفاء لمقتنياتها؟ فأنا، على حد علمي، لم أزل غرضًا تملكينه. أعرف أنّ هذا التنبيه سقيم، سيموت قبل أن يصلكِ، سيلفظ أنفاسه في الموضع ذاته الذي اغتيلت فيه أشواقي.

جميعنا سنترك لكِ الحياة التي تشبه غدركِ، وسنرحل معذبين بحبنا، ونحن لم نتحلل بعد من أمتعتنا. سنؤثر البعيد، سواء تعلمنا عادة الوفاء من خصومنا أو استنبطناها من غدركِ الهارب بلا زاد. ما عاد يعيب شيئًا- لا الجهل ولا مناهل المعرفة- مادام كل ذلك أصغر من قبحكِ وأنتِ تتخلين عن الحب الذي أنجبنا معًا.

كنا توأمين سياميين تجمعنا حركة واحدة وتناظر متلاصق، لكلٍّ ملامحه المستقلة، بينما يوحّد نبضاتنا قلبٌ واحد. كنا بديعين، جميلين، ووسيمين. لكنكِ- على ما يبدو- صدّقتِ الجمال المنعزل. ألم يكن من الأجدر بكِ، وأنتِ تنصتين بغباء إليه، أن تنظري إلى خلفيته التائهة في العدم من فرط كرهه لفرحة الألوان؟ عندها كنتِ سترين كيف تسيل مساحيق وجهه كتيار أوساخ يعاكس تملقه.

إليكِ وصفاتي المكتئبة، أعلّمكِ إياها جيدًا: كي لا تكوني ساذجة، وكي تصيري محنّكة في نظر النصابين، وأنتِ تحلقين في حياتك الجديدة من دوني، مثل طائر فينيق يفجر جناحيه في السماء لأول مرة منذ أن نبت من رماد أسلافه. بداية خليقة تشبه منبتكِ الطارئ من رماد الحرب. لكن الدخان علّمكِ الغدر سريعًا، ثم جئتُ أنا بعده أعلّمكِ كيف تتحاشين الصيادين، وكيف تكشفين حيل الفزّاعات.

فأيّ الدروس ستلهم شظايا ريشكِ المتناثر؟ أن تتلون ببيان الضباب الأسود، أم بحكمة الأستاذ المتصوفة بقوس قزح؟

لا تنسي أن تخبري البساتين أيضًا عن اكتئابي، وعن جزعكِ من وعودي. أفزعي بصراخكِ الزهور، اجعليها تهرب مذعورة إلى وجهكِ، كي أحلم بعينيكِ للمرة الأخيرة، وهما ممتلئتان بسوسنية اللافندر الحزين، وقد تشربت وجنتاكِ حمرة الأقحوان الغاضب.

لا رجاء لي، في وسط القفرة، إلا أن أختتم توحدي بكِ وتوحدكِ بي، بلوحةٍ يرتسم فيها على وجهكِ غضبكِ وكآبتي. أريد أن أسكن أسراركِ للمرة الأخيرة، وأن أرانا، نحن الاثنين، ممزوجين في ملامحكِ، نتبادل حالنا وأخبارنا. ثم يلمح البنفسج المنعزل تردد الحمرة في الاختيار، دون أن يقول لحيرتها أكثر مما قلته للمذكرات عن يقين عودتي وصدق حبي، أو يزايد على حنقها بما أرسلته لكِ من حنين ولهفة.

سألتُ عبد العليم:

- وهل وافقت سلوى؟

قال، متلعثمًا:

- كانت ممانعة...
- أفصح يا عبد العليم. لم يعد الأمر يهم.
- ... في البداية.
- يعني وافقت في النهاية.
- لم أتتبع الموضوع كثيرًا. التحقت بالجبهة وما من تقدم حصل في هذا الجانب!

يا لهذا البرود الذي أحاطكِ وأنتِ تقررين التخلي عني. ما أقرب جموده من قلبكِ، وما أبعده عن الحب الذي تعاهدنا حول مدفئته أن نقهر شتاء التخلي، إذا ما خطر أن يشل تبادل العواطف أو يوقف حركة اليقين المشترك.

أتذكرين قولكِ حين كنت أعيد السؤال: "ماذا لو جاء يوم يعرض عليكِ فيه مراجعة قرار التمسك بي؟" كنت تجيبين مستنكرة: "وهل سيأتي ذاك اليوم من الأساس؟!" كأنكِ تقولين إن الشتاء قد أُلغي من قائمة الفصول، وتقاعد كانون المجنون عن رشق المحبين بالثلج. أما الآن فتحسسي أطرافكِ جيدًا، أنتِ متيبسة، مكحلة الأظافر. لقد عاد الشتاء، وعادت الأشهر المختلة إلى عملها، ولكن بطلب منكِ، بخطأ لا أدري كم مرة كررته، حتى حلت عليكِ لعنة الصقيع بحماسها الكامل للقسوة.

أما أنا، فلا أستحق اللوم. فما كتبته لكِ من أشواق وأمنيات ووعود وأعذار... كافٍ لأن يترافع عني نيابة عن رحيلي. بعد كل هذا الألم المتكدس فوقي، منذ أول يوم قصدت فيه الحرب، مرورًا بعزلة السجن وقسوتها، وصولًا إلى هذا اليوم... أستحق صدر امرأة أنام عليه، وأستحق أناملكِ لتدلك على منابت الفرحة القاحلة في صدري، حتى أعود برفقة النسيان، ووهج الصبر، ومع قلبي الذي ظن أنه يتردد بكِ، وكأنه يبعد عنه خطأ فراقكِ الذي ضخمته الأقدار.

انتهى بي الحال خلف أقداري، أساومها محجوبًا بغبار الحرب، محاصرًا بقزامة التهويلات، عساها تقبل أن أعود إليكِ. كنت سأرضى... ولو ملكًا للفقر والعوز، ولو تحفظ الوطن على معاناتي كاملة، ولو أجمع لصوص البلد أني لست منهم، ولو نفتني الغنيمة خارج حدود المكاسب، ولو أسقطت المناصب المتنكرة بقناع النضال اسمي من استحقاقات المغامرين بأوطانهم،

ولو امتنع الدِّين عن منحي نصوصه لأبيعها في أسواق الحروب والثورات المتعطشة للحق الإلهي والخلافة. كان يكفيني أن تكون نافلة قلبكِ مكسبًا ونصيبًا، وقرارًا بالتوبة عن المجازفة بمشاعري وسط لهيب الحرب.

لكن، أليست القرارات نفسها من أرغمتني على المساومة، وأنا مسلوب الحيلة، منزوع الأوراق؟ وحين حسمت أمري وانضممت إلى الحرب، ألم يكن من الصواب أن أرضى بالنتائج؟ وكان الصواب لكِ، قبلها، أن تحبيني كما أحببتك!

لا أدري لماذا أظن أن من الإنصاف أن أحمّلكِ جزءًا من المسئولية حتى وأنا أتذمر من واقعي. أشعر أن لكِ يدًا في تعاستي، أن شؤمًا خرج منكِ وراح يطاردني. لم يسبق أن رأيتُني معذورًا إلى هذا الحد كما أرى نفسي الآن. حمّلتُك الذنوب في الجولة الأخيرة... فجأة، ونجوت أنا من ثِقل الخطيئة. لعل غدركِ هو من حسم الموقف؛ ربما لأن الخيانة جرم قديم وكبير وقعتِ فيه، فنالك الذم المتراكم عبر السنين. وصرتِ ضمن من قدحتهم الحكمة القديمة بقول أراه أصدق من كل جمل الازدراء:

"غلطة العاشق بعشرة".

❊ ❊ ❊

٢٩

اليوم هو الثاني لي بعد خروجي من الزنزانة الانفرادية. البارحة كانت طويلة بدورها. أتدرين ما هو الغريب والمضحك والمبكي؟ تلك الفكرة التي سيطرت عليّ أثناء التحقيق والتعذيب: أن هذا المكان تحكمه الشكوك المشتركة، وإلا فما مبرر إفراطهم في الريبة إلى درجة الجزم بأني تبادلت معلومات خطيرة مع عبدالعليم؟ وفي اللحظة نفسها كان الشك يعرفني على قرارِكِ، وكأنني كنت أُعذَّب بمبرر لا أفهم منطقه، بينما أنا مستسلم لنتائج حكمته وفراسته.

أما عبدالعليم، فلم ألتقِه بعد. يقطن في العنبر المجاور، ولا أدري أخرج من الانفرادية أم لا يزال رهينها. هذه المرة الأولى التي أُوهم فيها بالإعدام. في السابق كانوا يوهمونني بالغرق، أو يجبرونني على مشاهدة آخر يُعذَّب بوحشية. أما الآن فقد تصاعد الأمر: قرأوا عليّ عريضة تشبه حكم الإعدام وحدّدوا ساعة التنفيذ. طُلب مني أن أتهيأ، وأن أكتب وصيتي الأخيرة.

ومن بين كل تلك الفرص التي مُنحت لي، عجزت عن اختيار صيغة أناديكِ بها. أي وصف يليق بكِ؟ زوجتي الحنون؟ أرملتي المكلومة؟ عزيزتي التي لم يطقها الاشتياق؟ أي خطاب يناسبكِ، أيتها العصية على المناجاة، والمتمردة على اللقاء؟

لعلها المناسبة الوحيدة التي لم أكن فيها صادقًا معكِ كما اعتدتُ أن أكون. كانت فرصتكِ الثمينة لتعرفي حقيقة ما أكنّه لكِ، لو لم تُسارعي إلى خلع أقنعة حبكِ، ولو أنكِ صبرتِ قليلًا وأنتِ تؤدين دور المتلهفة على خشبة كوميديا اشتياقكِ السوداء. كانت مشاعري ستصفّق لكِ بحرارة، وكان حضوري سيفاجئ وجهكِ بمجيئه مؤمنًا بما ترتدين، غير عابئ بما تراه عيناكِ، بل بما يبصره قلبه. أما الآن، فوصيتي الحقيقية، الصادقة وغير المعنية بمشاعر قلبكِ، ستكون مستحقّة وواجبة: مستحقّة لأنها بلا ضمير نداء، وواجبة لأُسمعكِ نصحي، حتى لا تألفي الخيانة ولا تتعوّدي التخلّي. يكفيكِ فقط شيء يسير من الحب الصادق. سيكفيكِ لتحصين نفسكِ من التعلّق بالسلوكيات المريضة.

وإليكِ معلومة قد تُشجّعكِ على الإقلاع النهائي: في الحياة الموازية لحياة الإدمان والتعلّق، هناك حياة أخرى، حياة للتجديد، ترافقكِ فيها مشاعر مختلطة من الخفة والمتعة، تشعرين بها كلما تمردتِ على الروتين أو عصيتِ الملل بخطوة غير متوقعة، ترين نفسكِ مختلفة وثابتة الوفاء في آن، نصف يبهركِ بتمرده ونصف يدهشكِ بولائه.

قادوني بعدها إلى منصة المشنقة وأنا مكبّل اليدين إلى الخلف. لفّوا الحبل حول رقبتي وركلوا الكرسي من تحتي أكثر من مرة. في كل مرة كانوا يتلقفون ترنحاتي، ويعيدون الكرّة أربع مرات. لم يكن يفصل بينها إلا تنبيه بارد يطالبني أن أراجع نفسي وأخبرهم بما قاله لي عبدالعليم، وإلا فإن نجاتي في

المرة القادمة ستكون مستحيلة.

لكن كيف يمكنني أن أخبرهم بحقيقة ما جرى بيني وبين عبدالعليم لأتخلّص من تهمة التحايل الغبي؟ هل يمكن أن أقول لهم إننا لم نتبادل سوى وشوشة عن زوجتي التي قررت أن تتزوج أخي؟ سأبدو في نظرهم كاذبًا، مستفزًا، أحمقًا، لا يحترم نفسه.

❊ ❊ ❊

٣٠

صباح اليوم سمحوا لنا بالخروج إلى الباحة الخارجية. التقيت هناك بعبدالعليم وقد عرّفته على أحمد. كنت متشوقًا لرؤيته. أخبرني أنه بقي في الانفرادية نحو أسبوع، وتعرّض لتعذيب مختلف: حُبس يومين في قفص مليء بالجرذان لعلمهم بخوفه منها، ورُبط من يديه إلى السقف نصف يوم. كنت قد جربتُ هذا النوع من التعذيب في بدايات سجني: يشعر المرء وكأن عموده الفقري يُنتزع وذراعاه تُسلخان. أما إذا تزامن ذلك مع الضرب بالأسلاك، فلا وصف يمكن أن يفي. قال عبدالعليم إنه أجاب بما اتفقنا عليه، لكنهم اعتبروا التطابق ذريعة مدبّرة بيننا للنجاة.

تمنيت لو أني التقيت بعبدالعليم في ظروف مختلفة. وجوده مهم لجبر عزلتي. حين رأيته توقعت أني وجدت أخيرًا المنقذ الذي سينتشلني من غربتي. لكن وجوده الآن يؤلمني.

في محاولة لنسيان غدركِ سألته عن خالد، وعمار، ومعمر، وعن العم علي، وعن مرام، وعن والدكِ. فقال عبدالعليم:

- والدها أصيب بالشلل بعد أن علم أن خالد يقاتل في سوريا. هذا الخبر مع شلل أبيها جعلا موقف زوجتك ضعيفًا أمام الظروف القاسية.

- يا عبدالعليم، لا يمكنك أن تتصور الوجع داخلي. الأمر عندي فوق كل تقدير أو مبرر.
- يا أخي، أنت ميت بالنسبة لها ولنا جميعًا. لماذا تبالغ وكأنها تركتك وأنت إلى جوارها؟!
- لا تعلم كم أنا نادم لأني التحقت بالحرب. هي تعرف التفاصيل، لكني أكتب مذكراتي لأعيد تذكيرها بمبررات رحيلي، علّها تتفهم.
- عليك أن تؤمن بالأقدار. لعله خير. ستخرج من هنا وتتزوج غيرها، وتبدأ حياة جديدة.

تدخل أحمد في النقاش، وقال:

- يا حامد، أنت تريد من الآخرين أن يعذروك، لكنك لا تلتمس العذر لظروفهم!
- عندما يحب المرء، يعجز العقل عن ممارسة دوره في الفهم.
- يصعب إقناعك ما دمت لا تريد أن تقتنع. ستظل تبحث عن تفسيرات لتصرفاتك، وحين تعجز تهرب إلى الفلسفة أو الأعذار.
- أنتما لا تعرفان ما أعانيه. لم تحبا مثلما أحببت.
- خذها مني يا حامد: أنت مجرد مسوّدة مشوّهة عن زوجتك، إذا سلّمنا أصلًا بأنها غدرت بوفائكما المتبادل.

أردت إنهاء النقاش. لا حيلة منطقية تبرر الغدر. قناعتي أن مبررًا للتخلي عن

الحب لم يُخلق، مثلما لم يُولد بعد فهم يقبل بالكراهية. كيف لهم أن يزرعوا العقم في عقلي، فيما لم تثبت الأبوة أصلًا؟! بحثت عمّا يخرجني من دائرة الإقناع القسري، فسألت عبدالعليم عن مرام. لا أدري لماذا سألت عنها، ربما لأن خالد خذلها كما خذلتني أنت.

قال إنها تعرضت لانتكاسة نفسية حادة، نُقلت بسببها فورًا على نفقة أخيها عمار إلى مصحة متخصصة في صنعاء. كونها امرأة جعل الأمر أشد وطأة على أهلها، إذ لم يقبلوا أن تمارس جنونها علنًا أو تهذي أمام الآخرين بأغنيات أدخلت اسم خالد فيها منذ اكتئابها الأول، حتى باتت كلماتها تدور كلها حوله. تحولت تلك الهلوسات الغنائية إلى حديث الحارة.

أسفت لحالها. عادت من المصحة مثقلة بالعقاقير، تجر خلفها عقلًا هشًا يتخبط بين وعيٍ يتباطأ تحت ثقل الأدوية وبين جنونٍ يستعيد زمام نفسه كلما خفّ عنها أثرها. ربما لو كان القرار لي لفضلت لها البقاء في جنونها الكامل؛ أُجزم أن نوبات الجنون أهون عليها من عقل مثقل بالخيبة.

أما عن علاقتكِ الحالية بمرام، فلم يكن عبدالعليم مطلعًا بما يكفي. سألته عنها لأتحسس قربكِ من الوفاء، وأفهم موقعكِ من محنة حمل العقل المثقل أو إفلاته. كنت أود أن أستشف خريطتكِ الحالية: هل تأهبتِ للضياع، فزيّنتِ طرق العشق القديم بذكرياتنا، أم أن خوفكِ من التيه جعلكِ ترتبكين في لعبة تبادل الأدوار بين العربة والحصان التي يلعبها المجانين؟

سررت لسماع أخبار عمار، لكن حزني على الوطن تضاعف. صار بلدنا عاجزًا عن صناعة فارق إيجابي، مثل آلة بيروقراطية لا تفعل سوى ختم المآسي على استمارات الناس. صحيح أن عمار نجا من كارثة الهوية، وصار له أبناء من زوجته الشقراء ومتجر يملكه، لكني استغربت من تبدّل مبادئه. انغمس في حياة الاستقرار الكريم، وترك نفسه لابتزاز المزايدات الوطنية والإنسانية. صار يستفيد من شبكة مافيا معقدة، تروّج للمجاعة والدمار في اليمن كسلع تُباع، لتحصد عوائد مالية لا يصل منها للفقراء إلا فتات من علب فاسدة وأصناف رديئة. أما النصيب الأكبر، فيذهب لتجار الإنسانية الذين تفضح نواياهم أي محاولة جادة لحسم النزاع. فهم يرفعون فورًا شعار "الحفاظ على الأرواح"، بينما الحقيقة أنهم يحرصون فقط على استمرار الحرب نصف مشتعلة، لتظل مواردها تتدفق إليهم.

❊ ❊ ❊

٣١

من بين الأخبار التي نقلها لي عبدالعليم خبر وفاة معمر على أطراف إحدى القرى المجاورة، ميتًا بتشرده وجنونه. قال إنه كان ما يزال يهذي بعبارات عن عدم تورطه مع أي طرف: "أنا لست منهم، ما لي دخل، أنا طالب الله يا جماعة...". تمنيت لو أبقت له القسوة قدرًا من العقل يهديه إلى القاضي الحق، عساه يستريح من عذاب البحث عن الإنصاف في محكمة جهلها جنونه وتسيّدتها الحرب.

لكن ما أوجعني أكثر هو موته بتلك الطريقة الغامضة، إذ ظل جسده أيّامًا في العراء دون أن يلتفت إليه أحد، كما لم يلتفت أحد إلى براءته المهملة. بقي جثة منبوذة حتى عثر عليه راعٍ حين أشاحت رائحة جسده المكشوف للشمس عن مكانه، كروحه العارية أمام الجنون.

الحرب لعنة تلاحق حيوات الناس، تعبث بالقصص كما لو أن بداخلها رغبة دفينة في الانتقام من كل ما هو طبيعي. لم يبقَ مع كثافة المآسي ما يدعو للتضامن، ولا مع اكتظاظ الساحة بالقلوب المقتولة ما يحفّز على التعاطف. يا لاندفاع الأنين الذي جعلنا نواجه ضمائرنا الجريحة بشيء من الارتياح، بلا أدنى شعور بالتقصير، ولا حتى بالآلام الشخصية.

الآن لا شيء يهم: لا الإفراج ولا الحبس. الذين كانوا هناك مضوا، والذين

هم هنا يعيشون البرزخ. بقيت أتأمل أسوار المعتقل، متعجبًا من تجانس النهايات، ومن عجز الحرية عن إحداث الفوارق، ومن فشل السياج في احتواء القسوة. فالذين جاؤوا إلى هنا اليوم لم يأتوا من عالم يراعي مشاعرهم، بل من قدرٍ رسم برامج يومياتهم على ذاكرة تتجاوز المآسي وتتمدد إلى ما وراء الحرب.

ربما سقطت الحياة في الخارج أيضًا، حين تُركت طليقة. وكأن الحرب ركضت خلف كل ما انفلت، معتبرة الأحلام والحب أهدافًا متحركة تقلق ضميرها الجامد.

كم انتظرت اليوم الذي أكون فيه إلى جانبكِ، حيث الحياة. كنت أحسب أن لصبري في هذا المكان ميزة، أن أرى الجميع ولا يراني أحد. لا أدري، بعد أن صارت التكهنات مترنّحة، هل أمضي في مطاردتكِ بيقيني وصبري، أم أترك المهمة لخفة النسيان؟

كما أن النفي من الأوطان هو هزيمة الانتماء الكبرى، فإن الخذلان هو خسارة المشاعر العظمى. أليست البلدان مثل النساء؟ تأسرنا بالانتماء كما تأسرنا المرأة بالحب؟ اليوم أواجه خسارة مزدوجة وقاتلة: غدركِ وعزلتي. ما أفظعها من هزيمة مميتة! أنستني أن المعارك جولات، وأن الحروب دوارة: حرب لك، وحرب عليك. إنها هزيمة تسلبك القدرة على التحدي، وتفقدك الاستقواء بذاكرة الانتصارات. لعلها الهزيمة التي تميت دون أن تجرح أو تخنق. قولي لي: من تراه يتنازل أقلّ، ومن سينتصر؟

منذ أن شطر الربيع صنعاء، تاركًا الوطن المتشظي يتيه خلف سراب الانفصال، وأنا أحاول ألا أنخدع برائحة الورود. أتذكرين أيام الهبة الشعبية في العام ٢٠١١، حين أنجبت صنعاء وحدها أكثر من دولة مستقلة إلى شوارعها؟ يومها رفضت عرض المعارضة بتوظيفي في وظيفة عسكرية ضمن تسوية سياسية، مقابل تولي مهام أمنية في أحد الشوارع التي سيطروا عليها. كنت لا أزال أقدّر الحياة وأخاف على نفسي. لم أكن أستوعب معنى الموت من أجل مبدأ أو وطن. كل شيء بدا لي أقل من قيمة الوجود. كانت فكرة المغامرة بالحياة مستبعدة مهما بدت أدبيات الشهادة ملهمة.

لكن حين رأيتكِ تعانين، ينهش الحرمان رغباتكِ العادية، هزّتني المسؤولية، فركبت خريف العمر أبحث عن السراب بدلًا من تتبعه. لا تظني أن الحرب أغرتني أو تزينت لي، أو أني أتلقى عذابات الخدعة فيما تصرفاتكِ بريئة. إن قسوة الحرب عليكِ هي التي بددت إيماني بنفسي.

❊ ❊ ❊

٣٢

انقضى يوم آخر. في بدايته شعرتُ بغرائزي منحازة إلى الصوت المتمرد على ألفتي مع الكتابة إليكِ. قاومت ميلي إلى الانصراف، خشية الوقوع في مأزق أشد من حبي الذي حوّله غدركِ إلى ظنون آثمة، صارت تُسمّى فيما بعد بخيبات العاشقين. لجأت إلى قرار التراجع، تحسبًا لإحدى المصائب التي عادة ما تلازم عزوفي عن الكتابة في ظلال الخذلان. كوارثي كانت تفد إليّ مع الذاكرة المتورمة أو برفقة ضيق القلب المكبوت.

أي تردٍّ هذا الذي لحق بحبنا؟ هل توقعتِ أن يهبط بهذا الشكل، حتى يخالف الألق مساره، فأنوب عن الأشواق بنصوص أحكام غيابية؟ ثم يأتي أحدنا من بعيد، دون علم الآخر، ليقيّم منطقيات سلوك الحب، مبتهجًا بعدالة مقاضاته لماضيه العاطفي، دون أن يتألم لتراجع طفرته الفاخرة. لم أعد أعرف ما هو ضروري وما هو عادي. الحيرة حياد يتملق الجميع؛ خبرتُها يوم ترددتُ بين قتل ياسر أو العدول عن ذلك. كانت تلك الفترة متزامنة مع تفجير المدمرة الأمريكية "كول" في ميناء عدن. لا أدري كيف أربط بين الحدثين، ولا كيف أشرح لكِ أثر أحدهما على الآخر، إلا أن الخطابات السياسية التي اعتبرت الهجوم مدبرًا لتبرير غزو دول أخرى جعلتني أنظر بعمق إلى خياري: التخلص من ياسر، وكأن نهايته ستكون عربون كسبٍ مع الأقدار السيئة.

قبل ذلك كنت أظن أن الموت وحده قادر على صنع مسافات يستحيل اللقاء في منتصفها. أما الأماكن وتباعدها، فرغم أنها تُثقِل الجغرافيا، فإنها لا تمنع الأرواح من الالتقاء عبر وسائل الشوق. وإلا فما معنى أن تكون مليئة بالطرق والممرات؟ الجغرافيا لم تعرف ذكاء الحياة المتصلة بمشاعرها.

الآن عرفت أن الفراق، أيًّا كان موقعه من الحياة أو الموت، هو وحده القادر على بناء الحواجز. هو الذي اخترع الشوق ثم أماته ثم ابتلعه. أما الطرق، فقد تكفل حق العودة، لكنها لا تضمن اللقاء.

كم مضى منذ أن التقيتُ بعبدالعليم وبنبأكِ؟ يبدو أن المفاجآت لا تُحصي سنين شيخوختها بدقة. ربما هي فطرة الأنوثة في دسّ الأعوام كما تفعلين الآن وأنتِ توارين شيخوخة حبي فيكِ. وربما هو خصام الصدمة العالقة بشجارها الأزلي مع المشاعر، كما يحدث معي وأنا أتصارع مع حسباني لكِ.

التقيتُ اليوم بعبدالعليم. بدا نحيفًا ومصفرًا، كأن اليأس قد أتقن صقل ملامحه. حتى صوته، وقد تماهى مع نزهة السجن إلى القبو البارد، صار يشي بشحّ الاكتراث بالمستقبل وبالعالم من حوله. حاولت أن أمده بدفء عابر يعيد ثقته بالعزلة والطقس بدلًا من اتكاله الكلي على نعيم الخارج:

- عبدالعليم، لماذا التحقت بالحرب؟
- ولماذا تسأل وكأن الرجولة حُصرت فيك؟
- الله المستعان، لو كانت في الحرب الأهلية رجولة، لكانت من نصيب

من قعد عنها. لكني أعرف جوهرك المرح النقي، البعيد عن هذه الأجواء.

- صدقت. أنا أكره الحروب كلها، وخاصة الأهلية؛ فالمنتصر فيها خاسر كما يقال.
- نعم. ولهذا استغربتُ من تغيّر مبادئك. أمعقول أن الحرب شوّهت كل ما هو جميل فينا إلى هذا الحد؟
- من هذه الناحية فقد شوّهت أكثر مما تتخيل، لا سيما وأن سبب التحاقي بالحرب كان في ذاته أكبر إعاقة لها.
- شوقتني لمعرفة التفاصيل.
- تعرف والدي، رجل كبير في السن، وكان قيمًا على مسجد القرية البسيط، بما أعطاه الله من علم قليل، ومن تلقائية وسماحة اكتسبها من طبائع الناس.
- نعم، أعرف هذا. لكن ما علاقته بالتحاقك بالحرب؟
- بدأت السلطات تفرض خطبًا موحدة على أئمة المساجد، تدعو للجهاد، ولا تخلو من النبرة الطائفية. والدي رجل وسطي، ظل على وعظه القديم، لم يغيّر. لم يعجبهم ذلك، فاستخلفوا عنه إمامًا آخر من خارج القرية. لو انتهى الأمر عند ذلك الحد لكان خيرًا. لكن الإمام الجديد لم يجد قبولًا عند الناس، وصارت الصلوات لا

تجمع سوى بضعة أشخاص. ولكي يغطوا فشلهم، ألصقوا بوالدي تهمة أنه يحرض الناس على هجر المسجد، مع أنه كان يصلي خلف الإمام الجديد بلا اعتراض. بالنسبة له، الإمامة تكليف وليست منصبًا. فاعتقلوه، ووجّهوا له تهمة شق الصف والعمالة للخارج... تلك التهم المعلبة التي تجيدها السلطات. في المعتقل، عُذّب رغم وضعه الصحي السيئ: السكري، الضغط، الشيخوخة. منعونا من زيارته، ومنعوه من التواصل معنا. وضعه هناك مطابق لوضعنا هنا، إلا أننا كنا نعرف مكانه. تخيّل أني اضطررت لبيع ذهب زوجتي لأدفع رشوة حتى يسمحوا بإدخال الأدوية. فرضوا عليه أن يقدم أحد أقاربه للجبهة لإثبات براءته وإسقاط التهم. رفض، حرصًا على سلامتنا وكرهًا للحرب. لكن حين أبلغونا بشرطهم لإطلاق سراحه، التحقت بالجبهة، مقابل حريته. قبل الحرب كنتُ أظن الواقع ظالمًا، وأن الاستمرار على ما كان يراه الكبار من نعمة رضا، هو تخلف وجهل بأحوال الأمم الأخرى.

- كأنك تريد أن تجعلنا نغبطهم على نعمة الجهل؟

- لا، بل اكتشفت أني أنا الجاهل. أما هم، فكانت نظرتهم حصيلة تجربة. لعلها خلاصة انتهوا إليها: طبيعة الشخصية اليمنية المائلة للاقتتال، المستعدة لبيع دمها مقابل رشوة طائفية أو خطبة فارغة تمدح رجولتها.

٣٣

اليوم صباحًا انتشرت أخبار عن صفقة تبادل أسرى وشيكة، وأن بعض الأسرى قد عُزلوا في عنبر مستقل لتهيئتهم في ظروف مناسبة تتوفر فيها إمكانات للراحة، تمهيدًا لإطلاقهم في أحوال تنسجم مع تملّق أخلاقيات "احترام الأسرى".

الجدير بالذكر أن عدد الأسرى المعزولين ليس نهائيًا، وأن قائمة أسماء إضافية ستنضم إلى العنبر الخاص خلال اليومين التاليين. أخشى أن أكون، أو ألا أكون. أعتقد أنّكِ فهمتِ معنى رجائي الذي أسكنه قرارَكِ المرتبك بالخوف. لطالما انتظرت أن تثمر أمنياتي، لأحتفل بحصاد رجائي لله؛ لأبتهج محدّقًا في نهاية موسم ابتهالاتي إلى ثمرة نجت وحدها.

حلَّ يوم آخر سريعًا، ولم أكن قد حسمت موقفي من توقعاتي: هل سأكون من ضمن المشمولين بالصفقة أم لا؟ إلى أن جاء نداء صباحي من الحارس طلب مني اللحاق به إلى مرفق خارجي تعمل منه إدارة السجن. هناك قابلت لجنة مكونة من أربعة أشخاص يجلسون خلف مكتب طويل، لا يرتدون لباسًا عسكريًا؛ واحد بثياب شعبية والبقية ببدلات رسمية. لم تَبدُ عليهم ملامح العسكر، بل نعومة متكلّفة ونظرات فاحصة وإصغاء مفرط، كأنهم يبحثون عن ثغرات في الكلام. هم من أهل "حلّ وعقد" الحروب: أولئك الذين

نراهم قبل اندلاعها وفي ختامها، من ينفخون النيران ومن يأتون في النهاية ليتبولوا على رماد الجثث وجمرات الحسرات، ليطفئوا جحيم وعودهم وطموحاتهم المحترقة فينا.

نحن وحدنا من يستحق النسيان، لأننا تركنا المقدّمة وتخلّفنا عن النهاية. بقينا عالقين في الوسط المحتدم: بين طموحٍ ثوريٍّ ليس لنا، وبين حمائم سلام لم نُخلق مثلها للطيران. لفظٌ بسيط من اللغة بالكاد يتألف من كل رمادنا ومآسينا ومعاناتنا وحرائقنا، انبرى لِيُعَرِّفَ بنا لكن سرعان ما تلفظه الذاكرة بمعناه الركيك إلى خارج حدود الخلود: "جندي مجهول"، مُسمى خائف من إتمام شرح نفسه؛ حتى البروتوكولات الدبلوماسية تتصنّع له رغم إحساسها برتابة الزيارة، وتمنّ عليه بأكاليل الزهور، لأن ألوانها المستعدة للموت أصدق من ضريح رفضت حتى الجثث أن تتفضّل عليه.

- أنت محظوظ بضمك إلى قائمة المشمولين بصفقة تبادل الأسرى. نتمنى أن تكون قد عُوملت بشكل جيد.

قال أحدهم بابتسامة مصطنعة جعلتني أشعر أنني بعيد جدًا عنه.

- لم يعد مهمًا ما حدث، المهم هل سيستمر!
- أردت من جوابك أن أختبر الانضباط بالداخل.
- يا أستاذي، عندما يتعلق الأمر بإرضائكم فإننا نتحول إلى فئران تجارب في مختبراتكم. حتى أجوبتنا تنقلب إلى محطّات اختبار لا إلى محض استنطاق!

- تمنيت لو أن إجابتك أكثر جدية. نحن نولي هذا الجانب اهتمامًا كبيرًا. على كل حال، نتمنى لك السعادة. ونرجو ألا تعود إلى الحرب، فنحن لا نريد أن نراك ثانية إلا وأنت في صفّ الوطن.
- شكرا لك.
- جهز نفسك سيتم نقلكم خلال يومين.

خرجت من الملحق بشعور غامض، كمن أفاق من غيبوبة طويلة على ذاكرة معطوبة. كيف ألتقي بنفسي الطليقة للتو، وقد جعلتني بلا سيرة ذاتية أغري بها الحرية؟ بسببكِ أقف دون تفاخر بالوقت الذي مرّ، ودون نضال يستحق تقدير الحرية التي حملتني على بساطها السحري رغم الأسوار الشائكة والحراسة المشددة. بماذا أكسو الفضاء الشاسع الذي فُتح أمامي إذن؟

❊ ❊ ❊

٣٤

كلَّ ما فينا قد شاخ يا سلوى، حتى الذكريات باتت تتكئ على عكّاز الخرف، ولم يبق بعد الكبر سوى أن يسبقنا الموت مبكرًا، فنموت قبل الأوان مسحوقين تحت ركام حبٍّ تحطّم بين الحرب والخيانة. ما أعذب النشارة الطرية وهي تحدّق في مقصلة متخشبة، وما أصدق نظرة الفتات المتناثر وهو يعبر في ذاكرة مهشمة. أليس النسيان منحة مجانية لا ينالها إلا الموتى، لقاء تخليهم عن أنفاسهم؟ ولهذا يبدو كلّ من يخرج بسلام من صفقة خاسرة طرفها الموت وكأنه انتزع لنفسه حياة إضافية، وربح معركته مع الخلود.

أكتب إليكِ الآن آخر كلماتي من داخل المعتقل. في الصباح، حين عدت إلى المهجع لأجمع أغراضي، استُقبلت بفرحٍ عارم واحتفالٍ عفوي، بينما وحدي كنت أتظاهر بالبهجة. شعرت بالتردّد يحرس داخلي، وخفت من الفرح كما لم أخف من قدرٍ سيئ قط. كنت كمن يتعثر في تمثيل السعادة، فتفضح ابتسامته الباردة رعبه العميق. لم أستطع الردّ على عبارات التهاني، ولا مبادلة الأحضان. وحده أحمد، ومعه عبد العليم، أدركا سرّ انطفائي. عندها قال أحمد بصوت حازم، ليُنهي الموقف:

- هيا يا جماعة، ما قصرتم. الرجل متعب وبحاجة لجمع أغراضه.

انسحب الجميع، ثم أخذني أحمد وعبد العليم إلى زاوية في الصالة. قال عبد العليم وهو يبتسم:

- ألف مبروك يا حامد، والله فرحت لك. إن شاء الله ربّي يعوّضك عن الأيام السوداء التي عشتها.
- لم أعد أدري يا صديقي، هل تدعو لي أم تدعو عليّ؟

قال أحمد بنبرة حادة:

- ما هذا القنوط؟ تفاءل يا رجل، فالحياة تمضي مهما كان الظرف.
- المهم، ما الذي تريدان تبليغه لأهاليكما في الخارج؟
- بالطبع سنكتب رسائل، لكن... أتمنى أن تكون شجاعًا وتواجه حياتك بتفاؤل. خذني مثالًا، لم تتوقف حياتي رغم خسارتي لزهراء.
- ومن قال لك إن حياتك استمرت بعدها؟ وجودك هنا، وما لقيته من أيام قاسية، جزء من عذابك. أنت فقط توهّمت القوة حتى صدّقت كذبتك. تسير إلى الأمام، ثم تكتشف أنك لم تقف أصلًا، بل سقطت وتحطّمت.

سكت أحمد، ارتخت عضلات وجهه بعدما كانت مشدودة، وكأن المواجهة انتهت بلا غالب ولا مغلوب.

كسر عبد العليم الصمت بكلمات باهتة أقرب للمواساة:

- الله يعوّض على الجميع. المهم أنك بخير وسليم في بدنك وروحك، أما الباقي فسيعوّضه الله.
- تصدّقان؟ لم أكن أريد أن يكون وداعنا بهذا الشكل. كنت أستعدّ لأن أبدو سعيدًا من أجلي ومن أجلكما.

ردّ أحمد بفتور وهو يمضي إلى مهجعه:

- أنت من حوّل الأمر إلى عزاء.

انتهى الحديث في الواقع وظل في ذهني كلام كثير لم أقله. أحسست أني لم أكن بصدد الترافع عن حججي وإنما عن مزاج من اليأس والخيبة. عدت أرتّب أوراقي وأغراضي البسيطة: ثلاثة قمصان، ثوبان، وأربعة سراويل. بعضها بالٍ، لكن تركها قد يُغضب إدارة السجن التي تريدنا أمام الكاميرات محمّلين بمتاعٍ وفير، نخدع به عيونًا تترصّد فقرنا ووجعنا.

❊ ❊ ❊

٣٥

الآن أكتب إليكِ من العنبر المخصّص لتجهيز المفرَج عنهم. سمحوا لنا باستخدام دورة المياه، وفيها شفرات حلاقة وقطع صابون وعلبة شامبو. المكان نظيف، والأسِرّة مرتّبة. وعدونا بملابس جديدة موحّدة سنرتديها عند الخروج، وسيأتي الحلاق مساءً. كدت أنسى أن أخبرك: أحمد وعبد العليم تركا لي رسائلهما عند أحد السجناء، طلبا منه أن يسلّمها لي بعد رحيلي. قالا إنهما يكرهان لحظات الوداع.

قبل اليوم، كانت الأيام تعيد تعريف المعاني وفق مقاس الاشتياق إليكِ. الرحيل لم يكن حقيبة سفر أو تذكرة طائرة، لم يكن طقسًا في ميناء ولا وداعًا في صالة مطار. الرحيل كان أن تغادرك روحك على متن اللهفة، دون أن يودّعك أحد، ودون أن يستقبلك أحد في الجهة الأخرى. أمّا اليوم، فكلّ شيء عاد إلى معناه القديم. الرحيل صار مجرّد رحيل: خاليًا من دفء الاشتياق، مجرد عبور مادي بلا حماس، كما يعود المرء إلى أصله عاريًا من أي أوهام.

❊ ❊ ❊

٣٦

سنخرج بعد ساعات، وها أنا أكتب إليكِ كما اعتدت. لا أعلم إن كان أحد قد أخبركِ عن الصفقة وأسماء المشمولين فيها. تمنيت أن أكون حاضرًا لحظة معرفتكِ بها، أن أرى نفسي في عينيكِ بوضوح صافٍ، بعيدًا عن ضباب العبارات الغزلية ودخان المشاعر المحترقة لأجل أن يضيء قمرُكِ الخائف من شمسه. أردت أن ألمح حمرة وجهكِ، اشتياقكِ، تمتماتكِ بالحمد المحفوظة عن ظهر قلب. كان ذلك إرضاءً لعقائدي القديمة التي كانت تثق دائمًا بالظروف الخارجة عن حساب أصحابها.

مرحبًا من جديد، أكتب إليكِ الآن وأنا على الباص المخصص لنقلنا.

هذه المرة فرضت الحرية أن أستهل كلماتي بالترحيب: بالشمس التي توشّح طريقها نحو الغروب، بالأشجار الواقفة على جانبي الطريق، بالسهول المهيأة بعفوية الرمل لراحة الجبال إن فكرت بالاستلقاء، وبالليل الذي يتأهب ليستلم إرث النهار. الطبيعة ما زالت تتنازل للناس بصفاء، بينما البشر يزدادون قسوة على أنفسهم.

اعذريني إن لم أذكركِ بين هذه التحيات، فأنا مثقل بأحمال ذاكرة عجوز. ما أحتاجه الآن هو أن أفرغ أوجاعي في فضاء الخارج، كي أعود رشيقًا مثل الهواء النقي بعيدًا عن روائح المعتقل. لست بارعًا في التملق ولا في العيش

على حبلين؛ تفضيلاتي خرجت رغمـًا عني. فلماذا تغتاظين من ذلك؟ أليس هذا ما بقي مشتركًا بيننا بعد أن فرضت الظروف أشكالاً جديدة من الجمال لم نكن نعرفها من قبل؟

أتعلمين؟ أول نظرة إلى الناس والطبيعة بعد سنوات القطيعة جعلتني كمن يراها لأول مرة. شوارعي المألوفة بدت أضيق مما صورته ذاكرتي. تشابك الأيدي بين المارة ألهمني أكثر مما كنت أظن، وابتسامة بائع الموز التي تشق تجاعيد وجهه بدت لي انتصارًا للحرية على قيود الزمن، لا مجرد استنجاد بعمر مضى.

الطريق إلى صنعاء طويلة. لا أدري: هل اعتزلت الأمكنة بعضها البعض، أم نحن من اعتدنا الغربة حتى صارت العدوى في المكان نفسه؟ مررنا قبل قليل برتل عسكري متجه إلى الجبهة. وجوه المقاتلين مكشوفة على العربات: سُمرة فتيّة، ملامح وسيمة، لكنها مهيأة لموت عابر. كانوا يرددون أهازيج حماسية تخفي تحتها أسئلة حادة: لماذا يفرض الموت سطوته على حناجرهم؟ لماذا يُروّج للفناء ويُكسد الوجود؟ لا تنظير يجدي أمام نشيد الموت حين يُفرض كشرط رجولة، وتوظف الحماسة لتخدم تجارة الحرب وأهداف السلاطين. ما الذي أبقوه لنا سوى كلمات نلوكها كي نحتمل الذهاب إلى المناجم... مناجم الحتوف؟

❊ ❊ ❊

٣٧

حين عاكس الرتل طريقنا، انفجرت في مخيلتي صور الدماء، الجروح المتعفنة، الكوابيس الممددة، القيود والسياط، الاجتماعات الباردة لتلقي الأوامر، الليل الممزق بالقذائف، والنهار المختنق بالدخان. تخيلت أصواتهم وهي تتعلم لغة الاقتحام والانسحاب، فيتحول الرجاء إلى طلب دم إضافي أو عدة إسعافات، وتذوب الطموحات في رجاء خافت بأن يعود الزمن إلى الوراء قبل المواجهة.

ركضت إليهم قصصهم المؤجلة، لتبشرهم بطراوة الموت المغرقة. لبّوا النداء كأنهم مدفوعون برقصات وطنية مزيّفة، لحنٍ أجوف علّقت به أرواحهم. كيف لم يقف رخاء تجار الحروب بين دوافعهم المائعة والمكب الثوري الموحّل؟ أيُّ حرب أحق من الدفاع عن مدن الميلاد والقرى التي تفوح من رمالها لعب الطفولة؟ ما الذي يجذب في دوي المدافع أكثر من صخب الفتوة في الملاعب، أو من رحلة إلى ريف ماطر تغسل فيه الشلالات أعشاب الوادي؟

لقد أشغلتهم أخبار الحرب عن ذاكرة الوطن. لم يعد البقاء على الأرض استيطانًا بل هجرة أبدية داخل مجرة البارود والألغام.

لعلّ الوطن هو من بدّل رداءته الفضفاضة، وتخلّى عن فروع أسمائه بعدما

أرهقه حمل الأذرع المبتورة. أعياه ثقل الأبوة التي ألزمته بإعالة حتى الأسماء والمعاني. أو ربما فعل ذلك بدافع أنانية صغاره، الذين بالغوا في شراسة لهوهم حتى أسقطوا بردته عن منكبيه؛ تلك البردة التي طالما حفظت هيبته حين يحرس المقابر، وأعانته على رعاية المساجد، ومنحته القدرة على تغطية فرحة عاشقين يتبادلان أسرارهما على جبل هدّأ بركانه كي تستقر صخوره. بردةٌ كانت تمنح الدفء لذهن طبيب منهمك في ترويض ركض قلب مريضه، وتكفي لحجب الرياح حتى يُسمع الجيران وشوشات حاجاتهم، فيستنفر الإيثار لنجدتهم من غير خوف من فضائح الزوابع.

كل شيء انتهى هنا. انقرض المنطق، وذوى التعلّق. تحوّل الميلاد الجديد إلى شياطين صغيرة تعيش على التطفل: بخدع السياسة، بخطابات الجهاد، وبوعظ وطني مشلول بتبعيته. عن أيّ شيء كنا نبحث حين عثرنا على أحفورة الوطن المقدسة؟ تذكرت أننا لم نكن بصدد التنقيب، بل مطاردةٍ للتسلط والاستحواذ والعدوان والحرمان.

❊ ❊ ❊

٣٨

أكتب إليكِ الآن ونحن نستعد للنزول من الحافلة. أُطلّ على الساحة الممتلئة بجموع الأهالي، لا وقت لديّ للكتابة. أبحث في اتساع العيون الفاحصة عن ثغرة تحتفظ بعينيكِ. هل جئتِ لاستقبالي، أم أن الحفاوة صارت منالًا بعيدًا بعد الخيانة؟ لا تعبئي بحيائكِ ولا تحسبي حسابًا للخجل؛ فقد وفر التخلي الذي اخترتِه لنفسه استعارات التملق والمجاملة بدل صفاء الفطرة الأولى.

هذه اللحظة هي الأشد توترًا في حياتي كلها: أشد من خوض أول معركة، ومن قتلي لياسر، ومن يوم تركي لكِ، ومن لحظة أسري، ومن تلاوة قرار إعدامي مرارًا، ومن الخطوة الأولى خارج السجن. بالكاد أعتاد على جلبة الناس، أبواق السيارات، وموضع كفّي الذي يضلل عيني من وهج الشمس. لكن الشكوك القاتلة تجبرني على التخلي عن متعة الانسجام مع عفوية حواسي المستجدة.

أظن أن عليّ التوقف عن الكتابة. أرى عبد المجيد يقترب مع مرافقيْن. لا أدري ما الذي يحرسونه. يا إلهي، كم تغيّر! صار أضخم من المعتاد، كرشُه بارز، ووجهه الخشن غطته دهون ملساء. ثيابه الشعبية جديدة ومرتبة على غير عادته. عليه سيماء النعيم الموهوم الذي بعث به الأرواح إلى الجنة. رآني هو الآخر، وها هو يلوّح لي. قلبي يكاد يحطّم قفصي الصدري، فيما تؤدي

يداي المرتجفتان على هذه الأوراق دور الركائز المتأرجحة التي تلعب عليها لعبة القفز على الحبل.

❊ ❊ ❊

٣٩

قررت أن أمنحكِ حروفي، فلم تستطع مساحتكِ احتواء كرمي. بعد أن قال لي عبد المجيد ما قاله، لم يعد بوسعي الانتقام منكِ إلا عبر سخائي. أنا من حاول أن يصنع لكِ من الورق مأدبة وهدية، وأنتِ من حوّلتِ ضيافتي ومفاجأتي إلى أسلحة وسموم. مذكّراتي هي الذخيرة الوحيدة لجثتي، التي أرجو أن تكون أنين التابوت الذي يزلزل شفاءكِ من الخيانة. بعد أن أفشلتِ محبتي وخذلتِ أشواقي، تحمّلي اختناقات الأحرف وسهام الأسطر الحادة.

أستغرب من فائض غرابتي أمام قرارك. ألستِ ابنة الوطن الذي امتنعتُ عن الكتابة إليه حتى يتعافى من مساوئه؟ ما مصير قلمي الذي كان كلما كفر بوجود الفراق أعاد صدركِ ذراعًا عن أحضانه، وغادرت عن قلبكِ رحلة جديدة للوصل، وهاجرت من عينيكِ دفعة أخرى للحياة؟ أليست هذه مبالغة منكِ في اضطهاد الإيمان، أم أنه اجماعكِ على الجحود؟

"زوّجنا سلوى لأخيك صادق طمعًا فيها، وعملاً بالتقاليد". هذا أهم ما قاله عبد المجيد. أما ظروف القول وتفاصيل الحوار وكيف وصل حديثي معه إلى وكر خيانتكِ، فكلها ترّهات تبتلعها المناسبات وتُنسى سريعًا. ما يبقى هو الأفعال والمشاعر وكآبتي عليكِ.

لا أخفيكِ أن خشيتي السابقة من خيانتكِ لم تكن حقيقية، بل مغطاة بثقة

ساذجة تستبعد أن تختاري الزواج بغيري. ما كنت أتوهمه كان سبيلًا للعودة إليكِ محمّلًا بغزل جديد، أهب لفضولكِ ولغيرتكِ إجابة تغنيكِ عن اختبار محبتي. لكن هديتي المتوجسة تحولت إلى قنبلة يدوية اغتالت ثقتي. الآن، وقد صرت بلا فرضيات، أجزم أن الحياة بلا ظنون غير مجدية؛ فالعلماء حين توصلوا إلى المعرفة لم يفعلوا ذلك إلا بالظن، ثم بالتجربة. فهل أدركتِ الآن لماذا يكون العيش بلا حدس جهلًا عميقًا؟

قال عبد المجيد إنكِ فضّلتِ ألا تستقبليني. ماذا يعني تذرعكِ بالحياء غير تعميد وثيقة النهاية المخزية؟ غير أن الوجوه لن تتلاقى بعد اليوم، وأن المنطق يؤيد ألا تتقاطع النظرات؟ رسالتكِ التي أنابتكِ لاستقبالي لن أقرأها الآن، بل على الجبل الذي حمل بداياتي الأولى. فهي لن تغيّر ما صار واجبًا. لم تعد المسألة مسألة غفران، كما أن الأمر لم يعد بيد إغراء رسالة. وكيف سيكون تعاملي مع أخي السابق الذي لم أعد أدري ما صلة قرابتي به؟ أرأيتِ أن لغدركِ انتماءً جافيًا جرّد بقية الأنساب وشتّت قبائل الوفاء؟ إنها أقدار هذا البلد الذي أخرجنا عن السيطرة.

سجين غازل الفضاء، ففاجأته الحرية بالتيه، وخبأت عنه الطرق مساراتها. هكذا أنا: يخذلني التعلق ويقتلني الشغف. بلا مدار ولا بوصلة، منفلت عن الآخرين، عاجز عن البحث وعن التمعّن في الخرائط. ها أنا ذا من جديد بأطماع متواضعة، أستدرج بها الجبل الأول الذي شهد فصول نموي ليكون مرتعي الأخير، ألتقي عنده بالموت، وأقرأ فيه رسالتكِ التي، كما يبدو من

كلام عبد المجيد، سعيتِ لأن تمنحي الخيبة استهلالًا جديدًا. لكنها، في يقيني، لن تكون إلا تأبينًا ختاميًا لوفائي مع بوحكِ ومشاعركِ.

❊ ❊ ❊

٤٠

من سلوى إلى حامد

مع تقبّل اعتذاري، إليك تلاوة شوقي وصبابتي، وبيان توبتي، وحال وجداني من دونك.

كنتُ أعيد تركيب ملامحك في السحاب قبل المطر، وأشم رائحتك في شذى الياسمين والشذاب البلدي. كنتَ كل حواسي، التي لا تتوقف إلا عند الشعور بك.

صورتك المحفورة في ذاكرتي تحرقني كلما حلّقتُ حولها كفراشة لا تشبع من لذّة الطواف إلا بنيران كعبتها.

كان يسرقك إليّ قوس قزح بعد كل غيمة مثقلة بغيابك، وكانت تحضرك إليّ نجوم المساء في حلكة بعدك. كنتَ طيف الألوان كلّها تنحني أمامي لأختارها جميعًا.

كنتَ نجمًا يخفت لمعانه كلما دعوتك لتدنُو، إلى أقرب من المستحيل بمنزلة، أو إلى برج يطل على لقياك.

هل تعرف أنّي احترفتُ الشعر بهجرك؟

دوّنتُ عنك كتاب قصائد، كنتَ مطلع كل واحدة منها، بينما أخفقتُ أنا في الشطر الثاني من بيت قصيدتي الأولى. هكذا بقي ديواني خاليًا إلا من شطر واحد: اسمك.

هيا، أحرقني بلهيب مشاعرك، فأنا امرأة خُلقت من دخان، تهوى معانقة الغيوم وتوسّد القمر.

دعني فقط أداعب اشتياقي بحضورك، وأحقن وريدي الممتد إلى حجرتي المهجورة بوجودك، وأرقص على نغمات وصولك. كما تشتهيك روحي، سأجعلك، وإلى حيث تدعوني لهفة اللقاء سأمضي.

هي ليلة لم تكن كسائر الليالي: لم يأتِ القمر باكرًا، ولم تغمز نجمات السماء كعادتها. فلمن تتخفّى إن لم يكن في القرية متلهفة للقاء غيري؟

كل لغز وراء غيابك كان أحجية أفسّرها بأمنية رؤياك. ومع كل تفسير لبعدك لم يكن هناك شك، بل خصوبة خلّفها بعدك؛ فمنذ اللحظة الأولى لرحيلك وأحلامي وأمنياتي تتكاثر في مزارع الاشتياق إليك.

منذ استرقتُ السمع يومًا إلى قلبي وهو يحدث نفسه عنك، وأنا أحاول أن أشغل مسامعي مرّة بالهذيان، ومرّة بالنسيان، علّ جنوني أو حكمتي يجنباني ضجيج اسمك.

علّمني الاشتياق إليك من أين أبدأ عدّ النجوم، وكيف أتحاشى الجدران حين أسْرَنم في النوم.

سلوى

❊ ❊ ❊